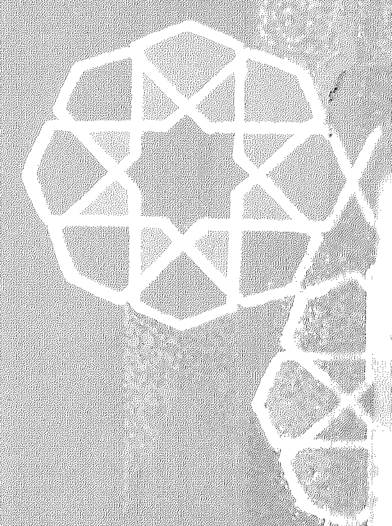
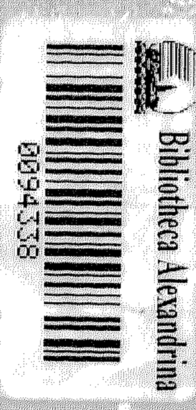
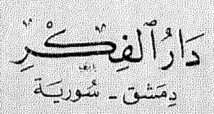
اليقظة العربية الإسلامية

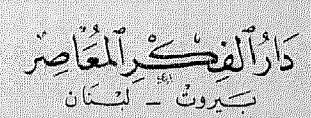
بقلم
أوجين يونغ

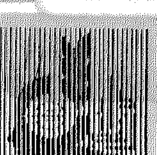
عرّبه وشرحه وعلّق عليه
الدكتور إحسان حقي






دار الفكر
دمشق - سورية


دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان




بسم الله الرحمن الرحيم


اليقظة العربية الإسلامية

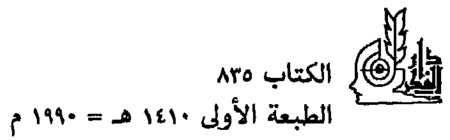
اليقظة العربية الإسلامية

بقلم
أوجين يونغ

عرّبه وشرحه وعلّق عليه
الدكتور إحسان حقي

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية



الكتاب ٨٣٥

الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ = ١٩٩٠ م

سورية - دمشق - برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد - ص.ب (٩٦٢)
برقياً: فكر - س.ت ٢٧٥٤ هاتف ٢٢٩٧١٧، ٢١١١٦٦ - تلكس FKR 411745 Sy

الصف التصويري: دار الفكر بدمشق
الطباعة (أوفست): المطبعة العلمية بدمشق

مقدمة المترجم

هذا الكتاب الذي نقدمه إلى القارئ الكريم يضم كتابين ؛ الأول بعنوان : العرب والإسلام أمام الحروب الصليبية ، وفلسطين والصهيونية[١] ، والكتاب الثاني بعنوان : الإسلام يدافع عن نفسه[٢] .

ولما كان العنوان الأول طويلاً جداً ، وكان الكتابان في مجلد واحد ، فقد اخترت لهما عنواناً واحداً مختصراً يفيد المطلوب وهو (اليقظة العربية الإسلامية) ، وهو عنوان أحد كتب المؤلف ذاته ، ولكني للتاريخ وللذكرى احتفظت بجلدتي الكتابين ونقلتهما كما هما في كلا الكتابين للدلالة على أصلهما ، كما يراهما القارئ في هذه الطبعة العربية .

مؤلف هذين الكتابين هو صديقي الإفرنسي الحر أوجين يونغ[٣] ، الذي كان نائب مقيم في تونكن - فيتنام - يوم كانت مستعمرة إفرنسية . والمقيم في تعريف الدبلوماسية الإفرنسية سابقاً هو الحاكم الإفرنسي الأعلى الذي يدير سياسة المحمية التابعة لبلاده ، وكلمته فيها هي العليا ، وكل شيء فيها تابع له ، مثله مثل المفوض السامي في البلاد الخاضعة للانتداب ، وقد زال هذان المنصبان بزوال الاستعمار .

عرفت الصديق المذكور سنة ١٩٣٣ م في جنيف - سويسرا - يوم كنت أمين سر المؤتمر الإسلامي الأوربي الذي أسسته مع صديقي المرحوم الأمير شكيب

(١) Les Arabes et L'Islam en face des des nouvelles croisades et palestine et sionisme.

(٢) L'Islam se défend.

(٣) Eugène jung.

أرسلان ، وقد أعجبت بالرجل أيما إعجاب ، وأكبرت فيه ما انطوى عليه من أخلاق فاضلة ، وصفات ممتازة ، ونفس رضية ، وإخلاص مجسم ، يبدو كل أولئك في حركاته وسكناته وأقواله وكتاباته . ومذ عرفته انعقدت بيننا أواصر صداقة متينة ، وكنت كلما ازددت به معرفة ازددت به إعجاباً ، وله تقديراً واحتراماً ، إذ إنه وقف نفسه على قول كلمة الحق ، ووقف مدافعاً عن العرب والمسلمين بقلمه ، بكل ما أوتي من علم ومعرفة وإخلاص ، خدمة للحقيقة والإنسانية .

لم يكن يقوم بهذا العمل نفاقاً ورياءً ، ولا كان يقوم به على حساب عقيدته الدينية أو الوطنية ، بل كان مسيحياً مخلصاً كل الإخلاص لعقيدته ، وإفرنسياً صادقاً محباً لوطنه ومخلصاً له ، وبهاتين العقيدتين دافع عن العرب وعن المسلمين ، لأنه كان يرى بعيني رأسه وعين بصيرته أن مصلحة بلاده هي في صداقتها للعرب والمسلمين ، وإخلاصها لهم وتعاونها معهم ، وليس بالكيد لهم وإذلالهم واستعمارهم .

وبالإضافة إلى هذين الكتابين اللذين يضمها هذا السفر ، فقد كتب يونغ نحو عشرين كتاباً بمواضيع متنوعة تأتي في طليعتها كتبه السياسية والتاريخية ، ومن كتبه التي دافع بها عن العرب والإسلام الكتب التالية :

١ ـ الدول الكبيرة أمام الثورة العربية والأزمة العالمية ، (سنة ١٩٠٦ م)[١] .

٢ ـ الثورة العربية من سنة ١٩٠٦ م إلى سنة ١٩٢٥ م ـ جزآن[٢] .

---

(١) Les puissances devant la revolte Arabe , La crise Mondiale de demain .

(٢) La revolte Arabe de 1906 à 1925

٣ ـ الإسلام والمسلمون في الشمال الإفريقي ١٩٣٠ م[١] .
٤ ـ يقظة الإسلام والعرب[٢] .
٥ ـ الإسلام تحت النير[٣] .
٦ ـ الإسلام وآسيا أمام الإمبريالية[٤] .

وهو يستشهد كثيراً بهذين الكتابين الأخيرين ، ويقول : إنهما ترجما إلى العربية ، وأنا لم أطلع عليهما ولا على ترجمتهما ، ولعلهما ترجما في الشمال الإفريقي ونفدا منذ زمن بعيد .

وله بالإضافة إلى هذه الكتب التاريخية والسياسية كتب تبحث بالسياسة الإفرنسية والاستعمار ، وله روايات أخلاقية ومسرحيات .

قلت : إن الرجل كان على جانب عظيم من علو الخلق والإخلاص للحق ، ولا أدل على ذلك من وقوفه إلى جانب العرب والمسلمين يوم كانت سوق الاستعمار نافقة ، وكان الغرور والغطرسة والحقد والطغيان قد بلغت بالمستعمرين مبلغاً جعلهم ينظرون إلى الأمم المستضعفة نظرتهم إلى الحشرات والبهائم ، فلا يرعون لهم إلاًّ ولا ذمة ، ولا يحترمون فيهم شعورهم ولا أموالهم ، بل يسلبونهم أرضهم ومالهم ، ويدوسون كرامتهم ويستهينون بهم ، ويتسلطون عليهم وكأنهم قطعان ماشية أو أقل شأناً .

في مثل هذه الحالة المشينة من التفكير الغربي وقف هذا الرجل الطيب النبيل ، وهو ابن فرنسا المستعمرة ، وجرد قلمه يدافع عن الإسلام والمسلمين وعن العرب ، لأنهم هم الذين كانوا الهدف للاستعمار والمستعمرين لا غيرهم ، إذ كان

(١) L'Islam et les Musulmans dans l'Afrique du Nord. 1930.

(٢) Le Réveil de l'Islam et des Arabes. 1933.

(٣) L'Islam sous le joug. 1926.

(٤) L'Islam et l'Asie devant l'impérialisme. 1928.

العالم ، آنذاك ، منقسماً إلى فريقين ، فريق آكل وفريق مأكول ، أو فريق مستعمر ظالم وفريق مغتصب مظلوم ، وأعني بذلك العالم المسيحي الأوربي وما يليه إلى الغرب ، من جهة ، والعالم العربي الإسلامي الممتد من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي ، من جهة ثانية .

لقد ضحى الرجل بكل شيء من متاع الدنيا وجاهها ونعيمها ، وتحمل في سبيل عقيدته كل أذية ، إذ بلغني أن الحكومة الإفرنسية حرمته حتى من راتبه التقاعدي الذي هو حق مكتسب له ، ولست أدري كيف كان ذلك ، فعاش الرجل عيشة فقر وفاقة تبدو عليه آثارهما ، وما كان مخفياً من نكباتها وآفاتها أعظم وأسوأ .

عرفت الرجل فأحببته ، وأكبرت فيه صفاته النادرة ، وأخلاقه العالية ، وإخلاصه الصادق ، واجتمعت به مرات بعد التعارف الأول ، إذ كان يزور جنيف بين الفينة والفينة ، وأظن أنه كان من قرية إفرنسية قريبة من الحدود السويسرية ، وكلما أتى إلى جنيف كنا نجتمع اجتماعات طويلة . وفي سنة ١٩٣٥ م رجعت إلى دمشق ، وانقطعت صلتي بالرجل ، ولكنه لم يكن يبرح خاطري بل ظل ذكره العطر على لساني في كل مناسبة تسنح ، وفي سنة ١٩٣٦ م ذهبت إلى باريس ، وكان في رأس قائمة الأصدقاء الذين كنت أريد أن أزورهم ، اسم هذا الصديق العزيز فقصدته على العنوان الذي أعطانيه والمذكور في كتبه ، وهو في الحيّ السادس عشر ، وهذا الحيّ أرقى أحياء باريس ومسكن الطبقة الثرية من الناس . وكنت أظن قبل أن أعرف الحقيقة أن هذا المسكن هو البقية الباقية من عز تالد وجاه قديم ، فلما سألت عن الرجل فوجئت بناطورة البناية تقول لي بلا مبالاة ولا اكتراث : لقد مات . وكانت المفاجأة أكبر والفجيعة أشد ألماً حينما علمت أنه لم يكن يسكن شقة في هذه البناية بل كان يسكن في مرآبها . حين سمعت هذا لم أستطع أن أتمالك دموعي ، فسالت على الخدين وأنا في ذهول . فلما

رأتني النـاطورة في هـذه الحـالـة أدركت أنهـا آلمتني فـأسرعت تعزيني وتسري عني وتهون علي المصاب ، ثم سألتني عن صلتي بالرجل وما درجة قرابتي منه ؟ فقلت : إنه ليس قريبي بل هو صديقي ، وكفكفت دموعي وانصرفت حزيناً كئيبـاً وأنـا أقرأ قولـه تعـالى : ﴿ يحسبهم الجـاهـل أغنيـاء من التعفف ﴾ ، إذ علمت أنـه كان يتستر وراء هذا العنوان لكي لا يبدي فاقته للناس وصرت أردد قول الشافعي :

تموت الأُسْدُ في الغـابـات جـوعـاً — ولحم الضـــأن يُطْرَحُ للكـلاب
وتَعْرى الســادة العلمـاء فينــا — وأثـوابُ الحرير على الـــدواب
وخنزيرٌ ينـــــــام على حرير — وذو أدب ينـــــــام على التراب

لقد قضى هذا الصديق فقيراً معدماً ، ولعله مـات برداً إذ لا يوجـد في المرآب وسيلة للتدفئة . نعم ، لقـد قضى هـذا الرجل النبيل العزيز فقيراً معـدمـاً ، وكان فقره وعدمه يفوقان ما كانا يتراءيان لعارفيه ، ولكنه عاش راضيـاً قـانعـاً مطمئن النفس ، فما عرفته متذمراً ولا متأففـاً ، ولا شـاكيـاً ولا متـألمـاً ، بل كان راضيـاً مرتـاح الضمير لأنـه كان يعيش بروحـه لا بجسـده أو كما يقـال : في عـالم الأرواح لا في عالم الأشباح .

غـادرت المكان وأنـا أقـول في نفسي ـ بعـد أن رأيت مـارأيت ، وعلمت مـا علمت ـ : حقـاً إن الأرض لا تخلـو من الفـدائيين الصـادقين ، ومن الصـالحين المخلصين الأخيـار ، الـذين يعيشون كالشمع ، يحترقون ليستضيء بهم غيرهم ، وكان لي في حياته وفي مماته درس عبرة لا ينسى ، كما قال الشاعر :

وكانت في حيـاتــك لي عظــات — فـأنت اليـوم أوعـظ منــك حيّـا

ذهبت الأيام والأعوام تطوى في سجل الدهر وأنا لا أستقر على حال ولا يهدأ لي بـال ، ولكني لم أنس الرجل ، الـذي أعطـاني درسـاً بـالإخلاص لا ينسى ، بل كنت أذكره وأتحدث عنه كلما سنحت الفرصة ، وكنت أبحث عن كتابيـه هـذين

اللذين أهدانيها فلم أجدهما ، وأخيراً عثرت عليها بين ركام كتب كنت أحسب أن وقتها قد مضى ، فرأيت من واجبي بعد مضي خمس وخمسين سنة ، وفـاء بحق هـذا الصديق أن أترجمها ليطلع عليها غيري لأحيي ذكره العطر ، وليكونـا درس عبرة لمن يريد الاعتبار .

كان هذا الرجل عظيماً في عقيدته وفي إخلاصه وفي صدقه ، ومما زاده عظمـة أنه رضي بحياة الفقر والفاقة طائعاً مختاراً ، وتحمل من صعاب الحياة ما لا يتحملـه إلاّ من كان ذا عزيمة صادقـة وقلب طـافح بـالإخلاص مثلـه . وإني على كثرة من رأيت من رجال يتصدون للأعمال العامة فإني لم أر مثله ، ولو كان الرجل نشـأ في دار متواضعة ، أو عاش عيشة شظف ، أو ذاق طعم الفقر ، لقلت إنهـا حيـاة نشـأ عليها واعتادها ، ولكن الأمر لم يكن كذلك ، بل هو ابن جنرال ، وعاش طفولـة سعيدة ناعمـة ، ثم شبـابـاً وكهولـة مرفهتين ، لأن من كان في مرتبـة مثل مرتبتـه لا يكون إلاّ مرفهـاً ، ولـو كان يحمـل في رأسـه أفكاراً غير الأفكار التي كان يحملهـا والتي رشحت من مداد قلمه ، لكان عـاش في رفـاهيـة ونعيم ، كما يعيش أمثـالـه ، ولكنـه اختـار الموت في الحيـاة ليكون في الأحيـاء بعـد موتـه ، وهـذه هي حيـاة الصالحين الأخيار .

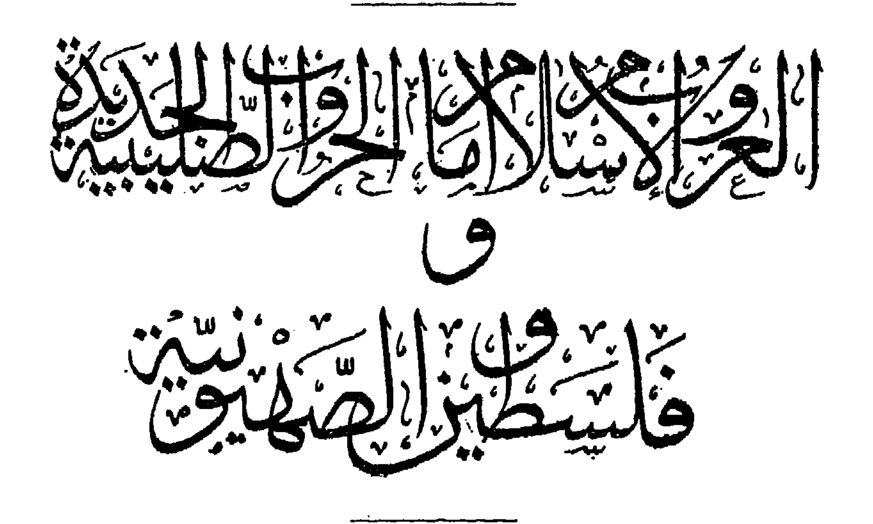
إحسان حقي

(١)

العرب والإسلام أمام الحروب الصليبيّة الجديدة
و
فلسطين والصهيونيّة

EUGÈNE JUNG
Ancien Vice-Résident de France au Tonkin

LES ARABES ET L'ISLAM
en face des Nouvelles Croisades
et
PALESTINE ET SIONISME



PARIS
Chez l'auteur, 50, Avenue Malakoff (16^e)
et dans les principales librairies

1931

مقدمة المؤلف

أيها الإفرنسيون !

إننا مهددون بأن نضيع إفريقيتنا وسوداننا اللذان سوف يثوران علينا ، بدل أن يقفا إلى جانبنا ، إذا مانشبت حرب في أوربا ؛ وها نحن منذ الآن موضع كراهية من قبل ٤٠٠ مليون مسلم[١] .

وهذا ما سيشرحه لكم هذا الكتاب الصغير الذي هو تعبير صادق عن الحقيقة ، وما هو بقول ثائر بل هو قول مواطن محب لوطنه .

فهل ستتركون هذه السياسة الخطرة تستمر ؟ ألا تطالبون بإلحاح من ممثلينا بأن يتخلصوا من أولئك الذين لا ينفكون يعملون لإلحاق الضرر بوطننا ، الذي كان في الماضي ، موضع إعجاب واحترام ؟

علينا أن نعود إلى حقيقتنا بدلاً من أن نكون تبعاً للفاتيكان وإلى دولة المال العالمية .

---

(١) يكرر مؤلف هذا الكتاب هذا الرقم وما دونه أحياناً على اعتبار أنه عدد مسلمي العالم ، وهو تقدير خاطئ حتى في الوقت الذي كتب فيه هذا الكتاب ، والحقيقة أن عدد المسلمين اليوم يناهز المليار نسمة ، ففي إفريقيا وحدها يوجد نحو ٢٠٠ مليون نسمة ، وفي الهند وباكستان وبنغلاديش نحو ٣٥٠ مليون مسلم وفي إندونيسيا والصين أكثر من ٢٠٠ مليون مسلم ، وفي الاتحاد السوفييتي وأفغانستان وإيران أكثر من مئة مليون مسلم ، وفي بلاد الشرق الأدنى ماعدا مصر ، لأننا أدخلناها في إفريقيا ، أكثر من ٥٠ مليون مسلم وفي بلاد أخر أعداد كبيرة تبلغ أكثر من مئة مليون مسلم ، ومن المؤسف أنه ليس للمسلمين إحصاء دقيق وربما لو أحصوا إحصاءً دقيقاً لزاد عددهم على المليار .

أيها العرب والمسلمون !

لقد كانت فرنسا بالنسبة إليكم تعني الحرية والنزاهة وكنتم تحبونها ، وهي هي اليوم كما كانت دوماً ، ولكنها تجهل السيئات التي ترتكب والتي أنتم ضحية لها .

فعليكم أنتم أن تعرضوا الحقيقة على الرأي العام الذي ، متى اطلع عليها ، فسوف يجبر قادتنا على إنصافكم .

في ١ مارس ١٩٣١ م **أوجين يونغ**

الفصل الأول

الحروب الصليبية الجديدة

هل نحن في سنة ١٩٣١ م ، وفي القرن العشرين ؟

قد يبدو هذا السؤال غريباً ، ولكن ، في الواقع ، له ما يبرره . فبعد الاختراعات الحديثة ، وبعد ماطرأ على الحالة النفسية العامة من تغيير أثر انتشار الثقافة الواسعة بين العامة ، وبعد النهضة الفكرية التي عمت العالم ، كان يجب أن يكون القرن العشرون قرن الرقي الواسع وحرية العمل والفكر والقلم ، بعيداً عما هو فاسد وغير أخلاقي ، وأن يكون المرء حراً بعواطفه وأفكاره ، وبالتالي أن يمارس الدين الذي يختاره من غير ممانعة أو اضطهاد أو إكراه من أي نوع . هذا هو الحلم ، فأين الحقيقة ؟

إذا أردنا معرفة بعض الأمور التي يجهلها الشعب ، علينا أن نرجع بضعة قرون إلى الوراء ، أي إلى زمن الحروب الصليبية ، لأن الصحافة حتى الكبيرة منها والتي تدعي أنها حرة ومستقلة تمام الاستقلال ، سكتت عنها متعمدة ، سكوت مصلحة ، أو عرضتها عرضاً مشوهاً .

منذ سنة ١٩٢٦ م أشرت إلى هذا الوضع وقلت في كتابي الذي عنوانه : (الإسلام تحت النير) من صفحة ٥١ إلى ٥٤ : إننا نقف على أبواب حرب دينية رهيبة ، ولكن لم يصدقني أحد . وفي كتابي اللاحق الذي صدر سنة ١٩٢٨ م بعنوان : (الإسلام وآسيا تجاه الإمبريالية) صفحة ١٦ ، ١٧ ، ١٨ و ١٧٠ أصررت بصورة أوضح على طريقة العمل ، واستنكرت سياسة الفاتيكان ، سياسة المراوغة

الخطرة لا بل سياسة الشؤم على فرنسا على مدى تاريخها وفي الوقت الحاضر أيضاً . إن الحرب الدينية اليوم حرب سافرة تشنها الصهيونية من جهة ، ويشنها الفاتيكان من جهة أخرى ، ضدّ الإسلام والعالم العربي . وعلى الرغم من احتجاج ٣٥٠ إلى ٤٠٠ مليون مسلم على هذه السياسة ، فإنها مستمرة من غير أن يتحرك أي قوم أو أية ديمقراطية للدفاع عن المعتدى عليهم ، ومن غير أن يفكر أحد بالنتائج الخطرة التي يبعثها هذا العمل . إن الجمهوريات والممالك والإمبراطوريات كلها ساكتة ، فهي إما متواطئة أو أنها تاركة الحبل على الغارب ، وفرنسا واحدة من هذه الدول ، بينما هي معنية بهذا الأمر أكثر من غيرها ومن مصلحتها ألاّ تسير في هذا الطريق .

هل الفاتيكان قوي إلى حد أنه يملك القدرة على متابعة السير في هذه السياسة ، وأن يفرض نفسه على الدول الكبيرة لمساعدته بكل الوسائل ؟ ألم يكن الفاتيكان العون لكل خصومنا الأوائل ؟ ثم ألا يجب على حلفائنا القدامى أن يذكروا ذلك ؟

أقول بصراحة : إنني أقصد الفاتيكان وليس المسيحية ، لأن هناك كثيراً من المسيحيين خارج هذه المعركة ، ويعيشون بمحبة ووئام تام مع المسلمين . وفلسطين مثل حيّ على ذلك .

ثم ، من جهة أخرى ، أقول : هل تملك الصهيونية من القوة الخفية ما يجعلها قادرة على إجبار أقوى الدول مثل إنكلترا والولايات المتحدة الأمريكية على أن تقدم إليها المساعدة في حربها ضدّ كل مبادئ الحق التي طالما تغنت بها هذه الأقوام ؟ وما هو الهدف الحقيقي الذي ترمي إليه الصهيونية ؟

هذه هي الأمور التي أريد أن أعالجها بأدلة منطقية من عندي ، من غير تحيز أو مراعاة دين على حساب دين آخر ، وأقول : إن الحروب الدينية القائمة

اليوم ليست مثل الحروب الصليبية فقط ، تلك الحروب التي لم تنقطع قط كما قال أحد أصدقائي العرب في رسالة بعث بها إلي ، بل هي اليوم تستهدف الأمة الإسلامية كلها . ألم يطلب فالوفاسوري بيروني[1] ، عضو مجلس الشيوخ الإيطالي ، في كلمته التي ألقاها في مجلس الشيوخ في ٣٠ مايو ١٩٣٠ م ، أن تشكل كل من فرنسا وإيطاليا وإنكلترا وإسبانيا ، جبهة واحدة ضد العرب ؟ وإن الذين يعرفون مدى حدود حرية الكلمة في إيطاليا ، في الوقت الحاضر ، والقيود المفروضة على أعضاء البرلمان ، يدرك أن هذا الشيخ لم يصرح بهذا التصريح إلاّ بعد أن أخذ الضوء الأخضر من موسوليني . وموسوليني ، كما قلت مراراً ، يستعمل الفاتيكان آلة لتحقيق أغراضه ، ويتظاهر بأنه يسير بآرائه . ألم ير العالم كيف عامل موسوليني أهل برقة المضطهدين بكل عتو وقسوة ؟ ألم يأمر غراتسياني[2] بإغلاق جميع الزوايا السنوسية ومصادرة أملاكها ؟ ألم يطرد ثمانين ألف مواطن ليبي من رجال ونساء وأطفال مع مواشيهم من أراضيهم الخصبة في الجبل الأخضر ، ويسكنهم في أماكن قاحلة حيث قضت قلة الماء وإمكانات العيش على عدد كبير منهم وأهلكت مواشيهم ؟ ألم يلجأ ، مؤخراً ، عشرة آلاف شخص من رجال ونساء وأطفال ، في ٤٠٠ خيمة ، إلى تونس تاركين وراءهم الواحات النضرة ؟ ألم تستقبل تونس فريقاً من أغنياء طرابلس فارين من وطنهم بعد أن باعوا أملاكهم ؟ وقد حدثت هجرة مماثلة نحو مصر ، فجردت الحكومة المصرية هؤلاء المهاجرين من السلاح ، وقبلت التجاءهم رغم احتجاج إيطاليا .

هل نحن في سنة ١٩٣١ م ؟ إليكم مثالاً عن الحضارة التي نريد ، نحن الغربيين ، أن ننشرها بين العرب : العرب هم الأعداء . الإسلام هو الشيطان .

---

(١) Valovassori Peroni

(٢) يجب على كل مسلم وعربي أن يحفظ هذا الاسم مثالاً على أعمال الشر والقسوة والغدر التي ارتكبها هذا الرجل العاتي في ليبيا مع شعب يكاد يكون أعزلاً .

هذه هي الألفاظ التي تتداول في أروقة الحكومات ، والتي يبدو أن بلادنا قبلتها رغم رياء ظاهر . إننا حينما نسمع مثل هذا الكلام يخيل إلينا أننا في حلم .

هناك سبعون مليون[1] مسلم يحيطون بالبحر الأبيض المتوسط ، وكلهم تقريباً من المسلمين ، وإن عدد المسلمين ، في العالم ، يتراوح ، كما أسلفنا ، بين ٣٥٠ و ٤٠٠ مليون نسمة .

ومن المؤسف أنه ليس هناك ، في أي مكان من العالم ، من يفكر بالصدمة التي يمكن أن تصيب أوربا بالقوة التي لم يحسب لها حساب حتى الآن ، والتي تتعاظم يوماً بعد يوم في أدمغة هؤلاء المنبوذين[2] الجدد نتيجة هذه العقلية الغريبة . لا يوجد من يريد أن يتذكر أن القسم الأعظم من مدنيتنا مأخوذ عن العرب والمسلمين ، وأن يقظة هذه الشعوب التي سحقها الاستعمار خلال قرون ، أصبحت وشيكة . ويجب ألاّ ننسى أن الشباب العربي والمسلم المثقف ثقافة عالية ، قد أصبح على شعور قوي بالقومية ، وإن لم يكن يمارس واجباته الدينية ممارسة تامة ، وهو يفهم واجبه ، ولن يتراجع أبداً حتى يحقق آماله المشروعة .

هذه هي الملاحظات العامة التي نود أن يعرفها أبناء وطننا الإفرنسيين ، على الأقل ، إذا كانوا يودون أن يحافظوا على أصدقائهم القدامى ، وأن يجعلوهم حلفاءهم المخلصين . ولا يهمنا أن تظل الأقوام الأخرى سائرة في ضلالاتها التي تساير تفكيرها ، أما نحن ، أي فرنسا ، فعلينا أن نتبع طريقنا المستقيم الواضح الصريح ، من غير أن نكون تبعاً لأي كان من الدساسين ، ومن غير أن نربط سياستنا الخارجية بمشاكل سياستنا الداخلية .

---

(١) هذا العدد قد تضاعف الآن .

(٢) وصف العرب والمسلمين بالمنبوذين الجدد لا على وجه الاعتقاد بل تندراً بأبناء قومه الغربيين الذين ينظرون إليهم هذه النظرة .

لقد كتبت مؤخراً كلمة بشأن المغرب إلى شخصية من أكبر الشخصيات ذات السلطة في الدولة أقول : إني لأتساءل أية عبقرية شيطانية حرضت بعض الشخصيات الكبيرة على أن تفعل كل شيء مستطاع لإلحاق الضرر بوطننا التعس ؟

يجب أن يوضع حد لكل الأمور المريبة ، وإذا كنا ، في السلطات العليا ، لانفهم معنى العاطفة ، وإذا كنا نسينا الخدمات العظيمة التي قدمها لنا العرب والمسلمون الذين عملوا في جيوشنا خلال حرب ١٩١٤ م ، وكذلك العرب إجمالاً ، وإذا لم يكن لنا شعور نبيل فعلينا ، على الأقل ، أن نراعي مصلحتنا . وإذا كان سلوك هذا الطريق القائم على الأنانية بعيداً عن النبالة ، فهو من أخلاق القرن العشرين .

وفي هذه الدراسة التي ستكون مختصرة جداً سوف أكون حيادياً عملاً بقول والدي الجنرال والمؤرخ يونغ الذي كان يقول : إذا شئت أن تحكم على الناس وعلى الأعمال حكماً صادقاً ، يجب أن تكون تباعاً على جانبي المتراس ، أو بمعنى آخر أن ينظر المرء إلى الأمور من كل وجوهها .

أنا كاثوليكي بالولادة ، ولكن هذا لا يمنعني أن أحترم كل الأديان ، ومنها الإسلام الذي تدعو بساطته وعالميته إلى الإعجاب والاحترام . وأما المسلمون فيجب علينا أن نفكر بسعادتهم وتطلعاتهم المشروعة ، وعلينا أن نجتهد كي نوفق بين تطلعاتهم وبعض ضرورات أمننا ، وأود أن أوجه كلامي إلى أهل البلاد التي هي تحت حكمنا ، وأما الآخرون فلنكن لهم أصدقاء وسنداً .

وقبل كل شيء أريد أن أبدي أسفي على ماحصل من احتفال بالذكرى المئوية للجزائر التي لم تأت بالانفراج المطلوب ، لأننا لم نفعل شيئاً في صالح

العرب والبربر ، على الرغم من إصراري على ذلك[1] ، إنها غلطة كبيرة ارتكبناها وإن حكومتنا لم تشأ أن تفهم ذلك وأن تحذره ، ويزيد الوضع سوءاً واستياءً مايعانيه الشمال الإفريقي من أزمة اقتصادية ، وكما أسأنا إلى الشمال الإفريقي ، فإننا قد أسأنا أيضاً إلى سورية رغبة منا بتشديد قبضتنا عليها ، وحرصاً منا على أن نضمن الفوائد لأصحاب رؤوس الأموال الذين هبطوا عليها . إن اليقظة سوف تسبب لنا ندماً عميقاً .

☆ ☆ ☆

والآن سأبدأ الكلام عن الصهيونية وعن فلسطين ، وسأتبعه بالحديث عن الحروب الصليبية الجديدة في المغرب وتونس والجزائر ، وعن نتائجها ، وعن ردات الفعل التي بدأت تظهر في العالمين العربي والإسلامي .

---

(١) يقصد بالذكرى المئوية الجزائرية احتفال فرنسا بمرور مئة سنة على استيلائها على الجزائر .

الفصل الثاني

فلسطين والصهيونية

« وهكذا ، فإن إنشاء وطن قومي يهودي هو عهد شرعي قطعه الحلفاء على أنفسهم في لحظة ذات شأن ، بعد أن استشير كل واحد منهم على حدة خلال المحادثات » .

« ... إن وجود اليهود في فلسطين هو نتيجة الحق الذي منحتهم إياه كل الدول ، وهذه هي النقطة العظيمة التي يجب ألاّ تنسى » .

هذه هي التصريحات التي أدلى بها الدكتور وايزمن رئيس المنظمة الصهيونية ، إلى جريدة (لوماتن)[1] في ٢٨ أكتوبر ١٩٣٠ م ، إثر إصدار الحكومة البريطانية الكتاب الأبيض في ٢٠ أكتوبر ١٩٣٠ م .

من المعلوم أن الحكومة البريطانية كانت تود أن تضع حداً للهجرة اليهودية إلى فلسطين وتحفظ الأرض للعرب ، وتمنح البلاد شبه تمثيل ، فقامت قيامة الصهاينة يتهمون العالم كله بالتقصير بحقهم ، ويقولون إن الانتداب قد انتهك ، وأنهم يطلبون تدخل العالم لإنصافهم .

فماذا ردّ العرب والمسلمون على هذا الاحتجاج ؟

بما أنه ليس لدى العرب والمسلمين منظمة ذات اختصاص لمعالجة مثل هذه الأمور ، ولا هم يعرفون ، من الناحية المادية على الأقل ، عاطفة التضامن التي

(١) Le Matin ....

هي قوة الشعب الإسرائيلي ، وبالتالي ليس لـديهم الموارد الكافيـة لإسماع صوتهم ، ولذلك فإنهم يضيعون في غمرة صراخ أعـدائهم الـذين يحولون دونهم ودون إيصـال أصواتهم إلى آذان المسؤولين بما يمارسونه من ضغوط سياسية ومـاليـة ، وبمـا لهم من إمكانات تؤهلهم لإيصال أصواتهم إلى حيث يريدون في كل أنحاء العالم ، ومع ذلك فقد جاء الرد من مجلة حديثـة صـدر عـددهـا الأول في شهر مـارس ١٩٣٠ م وهي مجلـة الشعب العربي[١] التي بـدأ الوفـد السوري الفلسطيني يصـدرهـا في جنيف . وكان هـذا الجـواب قبـل أن يصـدر الإنكليز الكتـاب الأبيض . وبينما كان هــذا الجواب يستحق أن ينشر في كل الصحف العـالميـة الكبيرة فـإن الـذي حـدث هـو عكس ذلك ، إذ إن الصحافة كلها تجاهلته وفضلت السكوت عنـه ، وكان سكوتـاً متوقعاً ، ولكن الحقيقة القاسية جعلت جميع الحلفاء في موقف حرج .

وإليكم مجريات الأحداث : في ٢ نوفمبر ١٩١٧ م صدر وعـد بلفور . ولنـذكر هذا التاريخ جيداً ، ثم لنرى ما حدث قبله وبعده من أحداث عالمية .

في سنة ١٩١٥ م حدثت حوادث حاسمة ، وكانت الـدول الكبيرة قـد اقتسمت فيما بينهـا أملاك الإمبراطـوريـة العثمـانيـة بصـورة مبـدئيـة ، فلمـا نشبت الحرب استبعدت إمبراطوريات أوربا الوسطى ، التي كان من المقرر أن تكون شريكة في الغنائم . فأعيد تقسيم الإمبراطورية العثمانية من جديـد على أمل النصر القريب ، ولكن الأمور لم تسر على هوى الحلفـاء وتقـديرهم ، بـل جـاءت خـلاف مـا كانـوا يتوقعون ، إذ بينما كانوا يظنون إنهاء الحرب بسرعة وإذا بالأحـداث تخيب آمـالهم وتقديراتهم ، إذ حلت بهم نكبة في الـدردنيل ، وهـددوا بضغـط شـديـد في جبهـة السـويس وفي الجبهـة العراقيـة ، كما أن مخـاتلـة الإنكليز ومكرهم أزعجـا القبـائـل العربيـة الكبيرة ، فـانصرفت عن الحلفـاء الـذين انـدحروا في الجبهـة العراقيــة ،

---

(١) كانت هذه المجلة تصدر بالإفرنسية باسم : La Nation Arabe .

وحوصروا في كوت العمارة ، وأصبحت إيران والهند مهددتين من قبل العثمانيين وحلفائهم ، حتى كادت تفلت من أيدي الإنكليز وحلفائهم ، فحينذاك فكر الحلفاء بالعرب الذين كانوا إلى ذاك اليوم يريدون استعبادهم فمالوا إليهم ، وكان الحلفاء يعلمون أن للعرب حزباً وطنياً عربياً ، وأنهم كانوا يريدون أن ينزعوا النير التركي عن أعناقهم ، وأن يستعيدوا حريتهم واستقلالهم ، فعهد الحلفاء إلى الإنكليز بمفاوضة الحسين شريف مكة والأمراء العرب للتعاون معهم .

وتمَّ الاتفاق على أن يتعاون العرب مع الحلفاء ضدَّ الدولة العثمانية على أن تعطى البلاد العربية استقلالها ضمن الحدود التي رسمها الملك حسين ذاته ، وتعهد الحلفاء بأن يدافعوا عن استقلال الدولة العربية ، على أن يبقى لبنان خارج هذه الدولة بسبب ما لفرنسا فيه من مصالح ، ولكن الملك حسين رفض الاعتراف بحق فرنسا أو غيرها بأية قطعة من الوطن العربي ، وقد استمرت هذه المفاوضات من ١ يوليو ١٩١٥ م إلى ٢٥ يناير ١٩١٦ م ، وكان لهذا الاتفاق أثره الحسن في الحرب لصالح الحلفاء في جبهة السويس وأسروا جيوشاً تركية ، واستولى الإنكليز على بغداد ، ونجت إيران والهند من أي تهديد ، واعتبر العرب شركاء الحلفاء في الحرب ، وجاء كثير من المتطوعين العرب من الأمريكيتين ، واندمجوا في صفوفنا ، أو في فرق مستقلة ليساعدونا على تحرير وطنهم .

ثم لما علم العرب بوجود اتفاقات سرية بين الدول الموقعة على اتفاقية ١٩١٥ م مع الحسين ، وخروج روسيا من الحرب إثر الثورة الشيوعية ، ساءت الأمور من جديد ، فلجأت الحكومة الإنكليزية إلى المراوغة ، وأرسل العقيد بابست[١]، الممثل الإنكليزي في جدة،إلى الملك حسين الرسالة التالية المؤرخة في ٨ فبراير ١٩١٨ م يقول : تلقيت أمراً من سيادة نائب الملك ، في الهند ، بأن أبعث إلى جلالتكم البرقية المرسلة من قبل وزارة الخارجية في لندن باسم جلالتكم من قبل حكومة

(١) Pabst !!!!!

صاحب الجلالة البريطانية وإليكم فحواها حرفياً : « إن إخلاص جلالتكم التام والذي أكدتموه بإرسالكم إلى سيادة نائب الملك الرسالة التي بعث بها القائد التركي إلى كل من سمو الأمير فيصل وإلى جعفر باشا ، كان لها أعظم الأثر على حكومة صاحب الجلالة البريطانية ، وإن التدابير التي اتخذها جلالتكم بهذه المناسبة ليست إلا دليلاً على الصداقة والإخلاص اللذين طبعا العلاقات بين الحكومة الحجازية وحكومة صاحب الجلالة البريطانية .

مما لاشك فيه أن السياسة المتبعة من قبل الحكومة التركية ترمي إلى خلق الشكوك والشبهات بين الحلفاء وبين العرب الذين بذلوا جهوداً عظيمة ، بقيادة جلالتكم ، لاستعادة حريتهم السابقة .

إن السياسة التركية لاتفتأ تزرع هذه الشكوك وتوحي إلى العرب بأن لدول الحلفاء أطماعاً في بلادهم وتسعى إلى إقناع الحلفاء بأنها قادرة على إرجاع العرب عن عزيمتهم ، ولكن أعمال الدساسين لاتستطيع أن تزرع الشقاق بين أولئك الذين يعملون لغاية واحدة وهدف واحد .

إن حكومة جلالة الملك ، بالاتفاق مع حلفائها ، تصر على موقفها المؤيد لكل الحركات الرامية إلى تحرير الشعوب المهضومة ، وهي عازمة على دعم العرب في نضالهم لإعادة بناء إمبراطورية عربية يسودها القانون والشريعة الإسلامية ، تحل محل الظلم التركي ويقضي على التفرقة المصطنعة التي أوجدتها السلطات التركية بين العرب .

وحكومة جلالة الملك تؤكد وعودها السابقة المتعلقة بتحرير الشعوب العربية ، وإنها بعد أن سلكت طريق هذه السياسة التحررية عازمة على الاستمرار في هذه السبيل بإخلاص وإصرار ، للحيلولة دون الأقوام العربية ، التي تحررت ، من الوقوع ثانية في العبودية ، ولمساعدة أولئك الذين مازالوا تحت

النير للحصول على حريتهم » . وكان وزير الخارجية البريطانية ، آنذاك ، اللورد بلفور صاحب الوعد المشؤوم . فيا للسخرية .

فماذا كان بعد نشر هذه الوثيقة ذات الشأن ؟ كان احتجاج الدكتور وايزمن الذي ذكرناه في رأس هذا الفصل .

فإذا كان هناك من اتفاقية يجب أن تنفذ فهي مع العرب الذين لهم الحق المطلق بأن يقفوا في وجه سوءنية إنكلترا وحلفائها .

إن الصهاينة كانوا يعرفون كما كنا كلنا نعرف باتفاقية ١٩١٥ م هذه ، وكانوا يتوقعون أن تكون حقوقهم المزعومة ، ذات الدرجة الثانية ، موضع مناقشة ، فإذا غضب اليهود ونقموا على بريطانيا وحلفائها فهذا الأمر يعنيهم وحدهم ، وسنرى في فصل آخر الطريقة التي سلكوها ، أما العرب فإنهم ليسوا فقط في بلادهم ، بل إن مطالبهم تستند أيضاً إلى أسس قوية لا يمكن إنكارها .

فماذا فعلت عصبة الأمم[١] ولجنة الانتدابات معاً ؟

هناك أمر ذو مغزى كبير يعطينا فكرة عن حسن نية المقامات العليا التي تدعي لنفسها الحق بالتسلط على العالم ، وأن تطبق على الصغار والضعاف أسطورة الحيوانات المصابة بالطاعون .

ففي ١ آغسطس ١٩٣٠ م رفض وزير المستعمرات البريطاني طلب البرلمان بالسماح بنشر الوثائق المتبادلة ، سنة ١٩١٥ م ، بين الملك حسين وسير هنري ماكماهون[٢] بحجة أن نشرها يضر بالمصلحة العامة وأن نشر بعضها غير مستحسن .

---

(١) المؤسسة الدولية العالمية التي أنشئت بعد الحرب العالمية الأولى كانت تسمى عصبة الأمم ، وهي التي تسمى اليوم بهيئة الأمم ، وكان مركزها جنيف .

(٢) Sir Henry Mac Mahon

وكان قد سبق أن قدم الوفد السوري الفلسطيني مذكرة بهذا الشأن في ٢٦ يوليو ١٩٣٠ م إلى سير إيريك دروموند[١] السكرتير العام لعصبة الأمم ، فلم يشأ أن يعرضها على أعضاء العصبة ، بحجة أنها من مصدر شخصي ، فما كان من الوفد السوري الفلسطيني إلاّ أن أجابه فوراً بما يلي :

١ ـ إن سورية وفلسطين هما جزء لا يتجزأ من البلاد العربية ، وأنها تؤلفان معها وحدة سياسية وعرقية واجتماعية ، وأنها على الرغم من أنها تحت حكم أجنبي فإنها تشكلان وجوداً قائماً بذاته ، وقد اختارتنا مندوبين عنهما نتكلم باسمها .

٢ ـ في الوقت الذي بدأت بريطانيا ، باسم الحلفاء ، مفاوضاتها مع الملك حسين وعقدت في ١٩٠٥ ـ ١٩١٦ م اتفاقات مع العرب لم يكن العرب ، آنذاك ، يشكلون دولة ولم تكن لهم حكومة منتظمة بل كان زعيمهم وممثلهم شريف مكة الحسين الذي فاوض وتكلم باسمهم .

٣ ـ إن الوعد الذي قطع لليهود بإنشاء وطن قومي له صفة التعهدات التي تتعهد بها أية دولة نحو أي شعب ، وعلى الرغم من أنه تعهد ظالم وغير شرعي فقد أتى بنتائجه المخربة ، بصرف النظر عن نوعية أشخاص أحد الفريقين المتعاقدين . هناك شعوب كثيرة وضعها مثل وضع العرب قد نالت استقلالها منها بولونيا وتشيكوسلوفاكيا .

٤ ـ إن كل البلاد العربية الموجودة داخل الحدود المعينة في هذه الاتفاقات لها الحق الثابت بالمطالبة بتنفيذ التعهدات التي قطعتها بريطانيا وحلفاؤها معها .

٥ ـ إن استقلال العرب حق طبيعي لهم ، وإن وطناً تاريخياً تؤيده الحقيقة الجغرافية والهوية الثقافية والأخلاقية واللغوية ، مكتسب بتضحيات كبيرة ، لا يحتاج إلى حكومة رسمية لكي يطلب الدعم من عصبة الأمم الساهرة على حقوق الشعوب .

---

(١) Sir Eric Drummond

٦ ـ إن دعوى إنكلترا أن نشر الوثـائق المعقودة مع العرب مضر بـالمصلحـة العـامـة كلام لا قيمة له بالنسبة إلى الطرف الثاني المتعاقد ، أي العرب .

٧ ـ إن هـذه الاعتبـارات لا تمنع ممثلي أي بلـد عربي داخل في الحـدود المرسومـة في الاتفـاقـات المعقـودة مـع إنكلترا أن ينشر هـذه التعهـدات ، وأن يطلب من عصبة الأمم تنفيذها من قبل الطرف الثاني .

٨ ـ ومهما يكن من أمر ، فـإن رفض بريطـانيـا نشر هـذه الوثـائق يجب ألا يمنـع عصبـة الأمم أن تـدرس الأسـاس الوحيـد الـذي يرتكـز عليـه الانتـداب على فلسطين .

٩ ـ إن إنكلترا بصفتها عضواً في عصبة الأمم مطالبة بتنفيذ تعهـداتهـا التي قطعتهـا للعرب ، باسم الحلفاء ، الذين يشكلون اليوم الأكثرية في العصبة .

١٠ ـ إنه لا يحق لعصبة الأمم ، في الوقت الذي تتبنى هي نفسها وعداً إنكليزيـاً غير شرعي ، ولا يتفق مع أبسط المبادئ ، وتطلب تنفيذه ، وتهمل أمر تعهـدات مكتـوبـة ومكررة قطعتهـا الـدولـة ذاتهـا على نفسهـا ، وتتنكر لهـا ، وهي تعهدات تختلف كل الاختلاف عن تعهداتها التي قطعتها لليهود .

استناداً إلى هذه الاعتبارات فإننا ، باسم الوفد السوري الفلسطيني ، نسـارع بتقـديم صورة من المقـاطـع الأسـاسيـة من المكاتبـات المتبـادلـة بين الملـك حسين وماكماهون ، والتي تحوي التعهدات المقطوعة للعرب ، وإننا على استعداد أن نقـدم إليكم الوثائق الأصلية إذا رأيتم ضرورة نشرها .

أما بشأن الانتداب الإنكليزي على فلسطين ، الذي يؤكد الصهاينـة أنـه إنمـا تقرر لكي يضمن لهم وطناً قومياً فهو ينـاقض المـادة ٢٢ من ميثـاق عصبـة الأمم . وقـد أوضـح سماحـة الحـاج أمين الحسيني مفتي فلسطين الأكبر ورئيس المجلس الإسـلامي الأعلى ، بصـورة أفضـل ، بكلمـة بعث بهـا في ٣٠ مـايـو ١٩٣٠ م ، إلى سير إيريك دروموند يقول فيها ـ بالإضافة إلى ماسبق بيـانـه ـ : « إن الانتـداب

يفترض وجود مندوب ومنتدب عليه مما لا وجود له في فلسطين حيث الحكومة الإنكليزية هي الكل في الكل ، بينما كثير من مواد هذا الانتداب تتحدث عن وجود حكومة وطنية محلية » . ثم أشار سماحته : إلى أن الهجرة اليهودية مستوحاة من فكرة دينية ، مما لا يختلف عن السبب الذي كان السبب في الحروب الصليبية في القرون الوسطى . وختم رسالته بالكلمات الحكيمة التالية :

« ومع ذلك ولكي نـدلل على روح التسامح ، فإننا نؤكد رغبتنا بالعيش بانسجام كامل وتعاطف تام مع كل العناصر غير العربية الموجودة في فلسطين ، في ظل حكومة ديمقراطية يشترك بها كل الفلسطينيين من عرب ويهود بنسبة عدد كل منهما ومن غير تفريق في الأعراق والأديان » .

وفي التاريخ ذاته كتب الأستاذ عوني عبد الهادي السكرتير العام للوفد الفلسطيني ، باسم كل الفلسطينيين ، من مسلمين ومسيحيين ، رسالة إلى رئيس اللجنة الدائمة للانتدابات ، يشرح له بها المتناقضات بين الفقرة الرابعة من المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم ، وبين عدم شرعية الانتداب ، ولكي يدلل أيضاً على أن سبب الاضطرابات التي تجتاح فلسطين منذ اثنتي عشرة سنة إنما هو إصرار الحكومة الإنكليزية على حرمان العرب من حقهم الطبيعي .

وفي ١٢ يونيو ١٩٣٠ م بعث الأستاذ عوني عبد الهادي برسالة إلى السكرتير العام لعصبة الأمم وإلى رئيس لجنة الانتدابات يطلب بها من الحكومة البريطانية أن تحدد مقصدها من مفهوم كلمة (الوطن القومي اليهودي) وأن تقول متى وكيف يمكن اعتباره قائماً ؟ ثم ألا تتشكل الدولة اليهودية آلياً وتلقائياً حينما يصبح اليهود أكثرية في البلاد بسبب الهجرة المكثفة ؟

هذه هي الوقائع التاريخية المؤكدة التي تضع حداً نهائياً ، وبصورة قاطعة ، وبمرة واحدة ، لهذا الجدل الذي تثيره قضية الانتداب الفلسطيني والوطن القومي اليهودي .

وعلى أثر هذه التقارير وخلاصة تقارير لجنة التحقيق التي تشكلت لدراسة قضية (جدار المبكى) قررت الحكومة البريطانية إصدار كتابها الأبيض ، وتعرضت فيه أيضاً إلى ذكر اجتماع الطاولة المستديرة المقبل الذي سيعقد من أجل الهند ، والذي سنقول فيه كلمة في مكان آخر .

وهذا الكتاب الذي ظن الإنكليز أنه سيرضي العرب لم يرض أحداً والعرب منهم بصورة خاصة . وإن تنكر الإنكليز الأخير الذي سنعرض له في السطور التالية كان المرحلة الأخيرة في قطع العرب صلاتهم بالإنكليز .

☆ ☆ ☆

ذكرنا الاحتجاجات التي أثارها الصهاينة يدعمهم ـ لأسباب سياسية داخلية ـ فريق من كبار الشخصيات الإنكليزية أمثال : لورد ستانلي بولدون ، سير أوسترن تشمبرلن ، مستر أنسري ولورد ميلتشت[١] . ولما كانت السلطة بأيدي هؤلاء السادة فقد ساروا بسيرة حزب العمال ، والحاجة هي القانون ، كما يقول المثل ، وأمن الإمبراطورية وبقاؤها مقدمان على كل الاعتبارات .

وفي الواقع لقد كانت القارة الإفريقية في غليان ، كما سبق لي أن ذكرت سنة ١٩٢٨ م ، في كتابي : (الإسلام وآسيا تجاه الإمبريالية) . فالشعوب تريد أن تكون سيدة نفسها ، وهي ترفض سلطة الدول الكبيرة ، ولم تكن الدعاية السوفييتية وحدها سبب هذا التطور ، بل هي نتيجة عوامل كثيرة منها : حرب ١٩١٤ م ، واختراع الراديو والطيران اللذان قربا المسافات ووصلا العالم بعضه ببعض فكرياً بما يذاع آنياً من أخبار وآراء متنوعة ومن مصادر مختلفة من جميع أنحاء العالم ، فتعرف الناس بعضهم إلى بعض بصورة أوضح وأصدق . وأصبح بالإمكان سرعة الاتصال وتبادل الآراء ، وكانت الهند تهم الإنكليز بصورة خاصة ،

---

(١) Stanley Baldwin. Sir Austern Chamberlain. Ancery. Melchett.

على اعتبار أنها آخر أثر من آثار الإمبراطورية الآخذة بالتفكك ، لأن بلاد الدومنيون بدأت بالانسحاب عن الوطن الأم واحدة بعد أخرى ، والهند تضم ٨٠ مليون مسلم[1] لم يتفقوا مع الهنادكة الذين يختلفون عنهم ديناً ، وعلى اتفاق الفريقين يتوقف مصير الهند .

ولما كان مسلمو الهند يهتمون بكل ما يمس الدين اهتماماً كبيراً ، فإنهم يتابعون ، عن قرب ، الحوادث الفلسطينية ، وقد عقدوا في بمبي ، من ١٩ إلى ٢١ أبريل ١٩٣٠ م مؤتمراً إسلامياً برئاسة مولانا محمد يعقوب للنظر في القضية الفلسطينية ، واتخذوا قرارات مهمة تتلخص فيما يلي :

١ ـ إن المسلمين لا يسمحون بأن يملأ يهود العالم أرض فلسطين على حساب المسلمين الذين كانوا يعيشون بسلام مع المواطنين اليهود والمسيحيين قبل وعد بلفور .
٢ ـ إنهم لا يحتملون وجود وطن قومي لليهود الصهاينة مع نظام خاص بهم .
٣ ـ يجب إخلاء البلاد من الصهاينة ومن السلطة الإمبريالية ، وإلغاء وعد بلفور ، ونظام الانتداب ، وإقامة دولة مستقلة من أهل فلسطين الأصليين .
٤ ـ قرر المؤتمر تشكيل لجنة دائمة تقوم برحلة دعائية في جميع البلاد الإسلامية .
٥ ـ تقرر أن يكون يوم الجمعة في ١٦ مايو يوماً خاصاً باسم : (يوم فلسطين) يحتفل فيه في جميع أنحاء الهند وبورما وسيلان (سري لنكا) .

هذا ، وإن الاضطرابات آخذة بالازدياد في شمال الهند ومصر والجزيرة العربية وإفريقيا كلها وكل الأوساط الإسلامية . وأما من الناحية الهندية ، فقد تقرر عقد مؤتمر طاولة مستديرة ، في لندن ، في ٢ نوفمبر لدراسة القضية

(١) كان هذا تقدير الناس في بداية هذا القرن ، وهو تقدير كيفي لا يقوم على إحصاءات رسمية ، وكلمة الهند كانت تشمل ما أصبح اليوم يسمى : الهند وبنغلاديش وباكستان وآسام ، والمسلمون في هذه البلاد اليوم يعدون أكثر من ٣٥٠ مليون نسمة .

الهندية ، كما قرر مندوبو المسلمين والهنادكة تأليف جبهة واحدة للمطالبة بنظام دومنيون للهند ، بينما طلب زعماء الرابطة الإسلامية استقلال الهند استقلالاً تاماً .

من كل ماذكر ، تظهر المشاكل التي تعانيها إنكلترا إضافة إلى رفض الفلسطينيين التصويت على المجلس التمثيلي الذي تود إنكلترا أن يكون لها فيه عشرة أصوات بالإضافة إلى أصوات الصهاينة ليضمنوا لأنفسهم الأكثرية ، ولذا بقيت القضية بلا حل ، وقد زادها تعقيداً علم العرب بالرسالة التي بعث بها وايزمن في ٢ مايو ١٩٣٠ م إلى عصبة الأمم ، والتي رد عليها السكرتير العام للوفد الفلسطيني المقيم في لندن بصورة رسمية في ١٤ يونيو ١٩٣٠ م ، وإليكم بعد مقاطع هذا الرد :

« ... ثم إن الرئيس الصهيوني يصرح بعد ذلك في رسالته قائلاً : إنه لا يمكن أن يكون هناك وطن قومي بلا أناس وبلا أرض ، فتحديد هجرتنا لأسباب سياسية أو إصدار تشريع يمنعنا من إمكانية الحصول على الأرض اللازمة لمستعمراتنا ، معناه بالنسبة إلينا إلغاء سياسة الانتداب بصورة واضحة .

هذا ماقاله الرئيس الصهيوني ، ونحن نعترف أننا لم نفهم من أين أتت هذه الضرورة الملحة لهجرة اليهود ولشراء الأرض في فلسطين ، ثم إننا لانستطيع أن نفهم لماذا يجب إقامة وطن قومي لليهود بإراقة دماء العرب » . وتابع المندوب الفلسطيني قائلاً : « ولم يتردد المستر وايزمن بأن يضيف هذه العبارات المستهجنة وهي : إذا كان حقنا بدخول فلسطين يجب أن يبنى على فوائد تجنيها الأكثرية من السكان الحاليين ، فإن وضعنا لن يختلف عن وضع المهاجرين الذين يدخلون بلداً غريباً . أليس هذا اعتراف صريح ينفي كل وهم بشأن صفة الغزو الصهيوني .

ونحن نسأل من أين جاء هذا الحق الذي يدعيه الدكتور وايزمن ويتهم إنكلترا وعصبة الأمم بعدم إعطائها إياه ؟

إن رئيس الوكالة اليهودية يرفض أن تكون الهجرة على قدر الحاجة وألا تكون مضرة بحقوق العرب ويصر على تجاهل العرب » .

بدأت الاحتجاجات المشروعة تتجدد في هذه الأيام بشدة إثر تنكر الحكومة الإنكليزية للعرب من جديد ، وقد انتهى مؤتمر الطاولة المستديرة ، واستمرت المحادثات في الهند ، وبعد أن اطمأن مكدونلد ، مؤقتاً ، من هذه الناحية اتجه نحو اليهود ليضمن لنفسه المساعدات المالية اللازمة ونشر في الصحف في ١٣ نوفمبر ١٩٣١ م ، الكتاب الذي أرسله إلى وايزمن وفيه يقول : « تعترف الحكومة البريطانية بأن تعهد بريطانيا العظمى بشأن فلسطين يشكل تعهداً للشعب اليهودي كله ، وإن بريطانيا ستستمر بإدارة فلسطين بموجب نصوص الانتداب الذي عهد إليها به من قبل عصبة الأمم » .

فرد الدكتور وايزمن على هذه الرسالة بقوله : « إن هذا الكتاب يصلح أن يكون أساساً للتعاون بين بريطانيا وبين اليهود المقيمين في فلسطين وإن سوء التفاهم قد زال » .

أما عرب فلسطين فقد أعربوا عن سخطهم على سوء نيات الإنكليز ، كما أعلنوا أن رسالة مكدونلد قد قضت على كل أمل بالتفاهم بين العرب واليهود وبدؤوا ، إذ ذاك ، مقاطعتهم لكل السلع التي يصنعها اليهود المقيمون في فلسطين أو يبيعونها .

واحتجت جمعية باريس السورية العربية أيضاً ، وأرسلت البرقية التالية إلى رئيس الوزراء البريطاني :

« إن الجمعية السورية العربية في باريس تحتج بشدة على تفسير الكتاب

الأبيض ، وترى أن الحكومة البريطانية قد خانت تعهداتها التي قطعتها على نفسها للأمة العربية ، وإن العرب لن ينسوا قط هذا الاعتداء الخطر على حقوق عرب فلسطين » . وقد انفجر العالم الإسلامي غضباً ولا سيا الهند حيث غدت الحالة مأسوية ، فقطعت إنكلترا الجسور مع كل الجهات لكي تواجه الوضع المالي المتضعضع .

إننا لا نود في هذه الصفحات أن نستعرض تاريخ الصهيونية ، ونعدد الأعمال الخاسرة التي ارتكبتها في فلسطين ، ولكن الصهاينة لم يعدموا الأنصار ، ومنهم الشيخ جوستن غودار[1] الذي قال : إن أكثر الأراضي الفلسطينية كانت مواتاً ، وكانت بحاجة إلى أيدٍ جديدة ، فرد عليه السيد شكري جاسر[2] ، وهو من المدافعين المتحمسين عن بلاده في اجتماع عقد في نادي الضاحية قائلاً : لقد قيدت الحكومة العثمانية أيدي الفلسطينيين خلال قرون من الاضطهاد ، ثم إن أهل البلاد أحرار أن يفعلوا في بلادهم ما يروق لهم ، وإذا ما قبلت فكرة إحياء كل الأراضي غير المزروعة في كل فلسطين ، فإنه لن يقف الغزو الصهيوني عند حدود .

ونضيف نحن قائلين : إن عشرات الآلاف الفلسطينيين ومثلهم من السوريين هجروا بلادهم قبل سنة ١٩١٤ م ، على أمل أن يهيئوا لمواطنيهم كل الإمكانات التي تساعدهم على بلوغ الكمال ، ولكنهم عدلوا عن برنامجهم على اعتبار أن سورية وفلسطين لم تعودا بلدين حرين بل أصبحا تحت حكم سيد جديد .

وفوق ذلك كله ، فإنه لا يليق بالصهاينة ومؤيديهم أن يصروا على دعوى

---

(١) Justin GODARD

(٢) لم أسمع باسم هذا الشخص ولم أر من سمع به ممن عملوا في القضايا العامة ، ولا عجب أن ينساه الناس ويجازوه على أعماله بالنكران والجحود ، شأننا مع المخلصين .

الحق التاريخي ، لأن مثل هذه الدعوى يستطيع أن يدعيها أحفاد كل الفاتحين القدامى وهي دعوى باطلة بالبديهة .

في الحقيقة يجب أن تكون الهجرة اليهودية إلى فلسطين مشروطة كما تفعل كل الدول ، أي أن توقف أفواج الغرباء متى شاءت ، والعمل خلاف ذلك هو إنكار لحقوق كل الشعوب .

أما دعوى اليهود بأنهم يودون أن يعيشوا في فلسطين بعيدين عن العرب ، وأن يكونوا سادة أنفسهم في بلاد يدعونها فهو أمر غير معقول ولا مقبول . وفي أحد كتبي (الثورة العربية) قلت في الجزء الثاني منه من صفحة ١٩٩ إلى ٢٠٢ ما يلي : « جاءت الصهيونية في مركبات الغرباء ، وكان عملاً سيئاً على كل حال » .

على الصهاينة أن يعترفوا ، بعد أن دخلوا فلسطين ، أنهم أصبحوا جزءاً من العالم الشرقي العربي الذي لا يستطيعون الاستغناء عنه ، وهم يعلمون أنهم الآن وسيكونون في المستقبل عاملاً مهماً وفعالاً في سبيل رفاه الشرق العربي .

إن الصهاينة يدركون ، ولا شك ، وضعهم المضطرب ، وإن الذين ينظرون نظرة بعيدة منهم يشعرون بأنهم لا يستطيعون أن يعتمدوا دوماً على مساعدة الإنكليز المستمرة ، ثم إن الإنكليز مضطرون إلى التعاون مع العرب من أجل الهند والبترول .

وإليكم ملاحظات بعض الشخصيات العربية : إن برامج الصهاينة وأطماعهم الواسعة ، بل الواسعة جداً ، سوف تكون موضع دراسات كثيرة في العالم العربي . وإن العرب لا يرغبون أن يزعجهم في اتجاهاتهم أناس لا يفكرون بتفكيرهم ، كما أن دخول أمثال هؤلاء ، نصف دخلة ، في أمورهم يمكن أن يسبب للعرب أضراراً متنوعة . ومثال ذلك ، إذا حدث أي سوء تفاهم بين العرب وبين اليهود ، فإن

هؤلاء يتجهون إلى إخوانهم الذين يعيشون في بلاد متعددة يطلبون مساعدتهم ، وفي هذه الحالة لا يكون العرب أمام شعب واحد بل أمام فرق مبعثرة من هذا الشعب رؤساؤهم في لندن وهؤلاء يسعون لكي يشركوا في المعمعة كل البلاد الأعضاء في عصبة الأمم .

فنحن ، إذن ، بحاجة إلى ضمانات جدية ، ولا بد من أن تكون الاقتراحات اليهودية مدعمة بأعمال إيجابية وضمانات حقيقية ، وأنْ يكون الدخول في الموضوع عملياً وليس وراءه أية فكرة مبيتة .

ثم يجب ألاّ ننسى أن القدس هي ثالث بلد مقدس عند المسلمين .

وها إننا نختم هذا المقطع المتعلق بالصهيونية بهذه الكلمات : مهما يكن من أمر ، على الصهاينة أن يقللوا من أطماعهم إذا كانوا يريدون أن يتفاهموا مع العرب ، وعليهم ألاّ ينسوا أنهم أمام أكثر من ٣٠٠ مليون مسلم ، وأن محاولاتهم الحاضرة المصحوبة بميل بعض زعمائهم إلى الإنكليز ، يمكن أن تسبب لهم أضراراً جسيمة وإفناءً تاماً . لقد قلت ، بهذا الصدد ، سنة ١٩٢٦ م ، في كتابي : (الإسلام تحت النير) صفحة ٤٨ و ٤٩ : « إذا تركت الصهيونية تعمل فإنها ستنتهي بإنشاء مملكة في كنف إنكلترا ، ولكنها لن تكون مملكة يهودية بل مملكة روسية بولونية ليتوانية » .

وقد تأسفت أن يرفض المجلس الصهيوني الأعلى اقتراحاتي التي كان يمكن أن تؤدي إلى التفاهم . وفي كتاب آخر قلت : « إن اتحاد عرقين ساميين اتحاداً تاماً سوف يؤدي إلى نهضة عظيمة في كل البلاد العربية ، وإن هذا سيكون خطراً على الإنكليز ، فإذا أدركوا هذا الخطر عملوا على توسيع شقة الخلاف بين العرقين . وهناك جانب آخر من القضية ليس أقل أهمية مما ذكرنا ، وعلى الصهيونية ومؤيديها أخذه بعين الاعتبار ، وهو ما تعرضت له مجلة : ناسيون أراب بصراحة

في عدد مارس ١٩٣٠ م ، إذ قالت : من الأمور التي تعتمد عليها الصهيونية لتكسو هدفها ثوباً شرعياً قولها : إنه ليس للإسرائيليين وطن في العالم ، ويريدون أن يكون لهم وطن ، وإن أفضل وطن هو الوطن الذي عاشوا فيه وتمتعوا بالرخاء . وهذا الادعاء لا يوافق التفكير السليم ، لأن اليهود حيثما وجدوا ، باستثناء بعض البلاد ، يتمتعون بالحقوق التي يتمتع بها غيرهم من أهل البلاد ، فهم إذن أصحاب وطن ، فإذا أصبح لهم وطن خاص غير أوطانهم التي يعيشون فيها ، فإن أفكار مواطنيهم في أي بلد يقطنونه سوف تستيقظ على تطلعاتهم الأجنبية ، وحينذاك تشتد فكرة العداء للسامية الكامنة في أعماق بعض الأوساط المتعصبة . فماذا يفعلون ، آنذاك ، حين تغدو الحياة مستحيلة مع هذه السياسة ؟ هل سيهاجرون جماعات إلى فلسطين ؟ إن فلسطين لا يمكن أن تستوعب كل يهود العالم ، ولذا فلابد من أن يتغير وضع اليهود الذين يبقون خارج دولة فلسطين ، وهم كثر ، بسبب تبعيتهم العاطفية أو السياسية إلى الدولة اليهودية الفلسطينية التي ستدخل ، هي بدورها ، في دوامة السياسة العالمية ، وبالتالي فإنهم سيكونون مجبرين أن يقفوا إلى جانب حامي هذه الدولة ، ويفقدون في نظر الدولة التي هم فيها صفة المواطن المخلص الأمين ، لأن تعلقهم العاطفي أو السياسي بالدولة اليهودية يصبح أمراً محتوماً ، فهل يريدون أن يصلوا إلى هذا الوضع المتناقض ؟ » .

ويجب ألاّ ننسى أن وعد بلفور يتضمن بقاء اليهود متمتعين بجنسية البلاد التي هم فيها .

وقد اختصر لنا يهودي من طبقة متوسطة من الناس ، ولكنه ذكي جداً ، هذا الأمر بهذا الشكل الفظ ، ولكنه ينطوي على الواقع إذ قال :

« تعساً لنا نحن اليهود إذا تكونت هذه الدولة . نحن يهود قبل أن نكون

إنكليز أو إفرنسيين أو غير ذلك ، فإذا تكونت هذه الدولة فسوف نخدمها على حساب وطننا الثاني الذي نعيش فيه وننتسب إليه ، وسوف ننقل أسراره إلى الدولة اليهودية في فلسطين ، ولسوف نطرد من كل مكان . فلنبق كما نحن مع مانتمتع به من وضع ممتاز ، خصصنا به وحصلنا عليه بفضل جهودنا وتكاتفنا » .

☆ ☆ ☆

إن كل الحقائق التي ذكرناها في هذا الفصل هي حقائق ثابتة وأكيدة ، ويجب أن تنشر في العالم كله ، لتكون جواباً على دعاية الصهاينة المتطرفة ، فإذا عرفت هذه الحقائق ، فإنها ستجعل الرأي العام العالمي ملماً بالحقيقة ، ولن يضل في متاهات أقوال ملفقة .

إن الولايات المتحدة الأمريكية التي سارت وراء دعايات جامحة ومضللة في هذه الحركة الصهيونية يجب أن تطلع على حقيقة الوضع ، وحينذاك تعلم أن كل ماعملته ، في تأييدها للصهيونية ، إنها حرمت شعباً من حريته في بلده على حساب سياسة اغتصاب واعتساف لا يمكن أن تؤدي إلاّ إلى الخراب .

وبرأيي ، وأنا الذي عاشرت العالم العربي منذ ست وعشرين سنة ، أن هناك شخصاً واحداً يستطيع أن يشرح للأمريكيين حقيقة الوضع بكل وضوح هو شكري جاسر ، وهو فلسطيني على ثقافة عالية وغير متعصب ، فالرجاء أن يستطيع في تنقلاته العديدة أن يجد الفرصة للذهاب إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وأن يتكلم باسم الضحايا ، الذين انتدبوه من كل أطراف المعمورة ليتكلم باسمهم ، وليمثلهم في مؤتمر الصلح الذي عقد سنة ١٩١٩ م ، وفي تلك الفترة أصدر نشرة بعنوان : (الصهيونية وفلسطين) لم يترك فيها زيادة لمستزيد ، اللهم إلاّ هذه الوثائق الإضافية التي ذكرناها .

وقد سبق له أن كتب بتاريخ يونيو ١٩١٧ م ، كلمة بشأن فلسطين قال

فيها : « لا شيء يستطيع أن يجبرنا على قبول الدولة اليهودية ، وسنعمل كل ما في وسعنا للخلاص من الصهيونية التي لا يوجد سبب يدعو إلى وجودها ، وإن المثالية التي نرمي إليها هي التي تبعث فينا القدرة والقوة لتحقيق ما نريد ، وإن شعارنا هو : فلسطين للفلسطينيين » .

وفي سنة ١٩١٩ م والسنين التي تلتها كافح في الصحافة في سبيل استقلال الشرق ، وفي يونيو سنة ١٩٢٦ م كان صاحب فكرة المباحثات التي أدت إلى تهدئة الحالة في سورية . ولما كان قد تربى في فرنسا وأشرب حبها ، فإنه لم يكن يرى سبباً في عدم إمكانية اجتماع القومين في نطاق تفاهم عادل ، ولو صدقت وزارة الخارجية الإفرنسية في وعدها لكانت القضية السورية قد حلت بما يرضي الجميع ، ولكن الجهود وقفت ونترك للقارئ تقدير ما حصل[1] .

بالإضافة إلى الوقائع الإيجابية التي ذكرناها ، يجب أن تضاف بعض الملاحظات التي توضح وضع الصهيونية بصورة أكمل وهي :

يوجد في العالم نحو ١٥ مليون يهودي ، والقسم الأكبر من هذه المجموعة لا يحب أن يسمع باسم الصهيونية التي لا يفهمونها والتي يعتبرونها من الأعمال الخطرة ، وإذا كان هؤلاء لا يقصرون بتموليها ، فذلك على سبيل التضامن ، من غير أن يهتموا بها ، ولكن زعماء الصهيونية يحرصون على أن تكون خزائنهم الكبيرة عامرة ، وأن يدافعوا عن المكاسب التي يحصلون عليها ، بفضل عمالهم العاملين في المنظمات المركزية .

وهذه الأمور لا تعنينا بل الواجب قوله هو أن ٤٠ ألف فلسطيني اضطروا إلى ترك بلادهم لعدم وجود أراضٍ صالحة للزراعة ، وأن ضرائب جمركية فرضت على كل إنتاج يأتي من الخارج ويمكن أن ينافس الإنتاج الصهيوني ، مما جعل

---

(١) راجع كتابي (الإسلام وآسيا تجاه الإمبريالية) من صفحة ٨٢

الحياة غالية ، كما أن جميع الوظائف الرفيعة يتولاها يهود ، وهم الذين يحكمون أهل البلاد مع أنهم هم الأقلية في البلاد .

وفي عـدد ١٣ سبتمبر ١٩٢٩ م من مجلـة (العـالم الإسرائيلي) عرض السيـد (بيلنكي Bielinky) ـ بـاختصـار ـ الأغلاط المرتكبـة في فلسطين بقولـه : « لقـد أهمل الصهاينة أن يطلبوا موافقة الشعب العربي على إيجـاد الوطن القومي ، وإنـا لنرجو أن يفهم القادة الإسرائيليون هذه الحقيقة البدائية ، وهي أنه لا يمكن إقامـة وطن قومي في بلاد ما من غير أخذ موافقة أهلها مسبقاً .

إن غير اليهود الموجـودين في البـلاد يـزيـدون خمسـة أضعـاف على اليهـود ، فيجب ألا نتجـاهل هـذه الحقيقـة ، ثم ليست فلسطين إلا جـزءاً من بـلاد عربيـة واسعة يجب أن يحسب حسابهـا ، وليس حسـاب الـ ٦٠٠ ألف عربي الموجودين في فلسطين ، الـذين يجب أن يحسب حسـابهم ، بل يجب أن يحسب حسـاب الـ ٤٠٠ مليون مسلم .

إن أول ما يجب عمله هو المصالحـة مع العرب ، لأننـا إذا كنـا نجهل كم سيبقى الحكم الإنكليزي في هذه المنطقـة ، فـإننـا لا نجهل أن المجموعـة العربيـة بـاقيـة على الدهر ، والحكمة السياسية تقضي أن نكون في صلح وتفـاهم معهم ، وإلا فلن يكون وطن قومي في فلسطين أبداً » .

ونحن نقول : إن هـذا هو العقـل ، وهـذا مـا نبهنـا إليـه ، ولكن الصهـا ينـة ومؤيديهم العديدين والنـاطقين بـاسمهم لا يودون أن يصغوا لصوت العقل ، بل هم يعتمـدون على عنـاصر متنـوعـة يمتلكـون مفـاتيحهـا ، كما يعتمـدون على تحيز لجنـة الانتدابات لهم ، وعلى عقلية هذه العصبة العقيمـة التي ينحصر دورهـا بـالتصـديق والموافقة على الأعمال التي ترتكبها الدول الكبيرة وعلى تبريرها .

ولكي يبرر الصهاينة تسلطهم على فلسطين يعتمدون على موافقة ٥٢ دولة ، وقد رد على هذا القول كل من الشيخ جوستن غودار والسيد شكري الجاسر بقولهم : « إن هذه الموافقة ينقصها العضو الثالث والخمسين وهم أهل فلسطين المعنيين الأوائل ، هذا مع العلم أن ٤٩ دولة من الدول الاثنتين وخمسين التي وافقت على هذا القرار إنما كانت تبعاً للدول الثلاث الكبيرة وهي لاتعلم شيئاً مما يجري » .

ونختم هذا البحث قائلين مرة أخرى : « إن رجال الدول والصحافة العالمية قد تناسوا متعمدين حقوق الشعوب وحقوق الملكية ، وأمام هذه المحكمة العالمية المتحيزة تحيزاً أعمى كُرِّم اللصوص » .



الفصل الثالث

تونس والمغرب

للاحتفال بذكرى مرور ألف وست مئة سنة على وفاة القديس أوغستن مطران هيبون[1] وعلى اعتبار أنه من أصل بربري رأى الفاتيكان أن يقيم له هذا الاحتفال في قلب بلاد إسلامية أي في تونس .

أما أن تكرم الكنيسة رجالها الكبار فهذا شأنها ولا اعتراض لنا عليه ، وأما أن تختار بلداً لها عليه الحماية ، وكل أهله تقريباً من أتباع دين آخر ، فهو عمل بعيد جد البعد عن اللباقة واللياقة ، وداع إلى الاستفزاز ، ولكن لا خوف عليهم مادامت الحراب الإفرنسية حاضرة لفرض احترام الدخيل .

هذا ما حصل في شهر مايو سنة ١٩٣٠ م حيث عقد مؤتمر (سر القربان المقدس) في ضاحية قرطاج ، وللحصول من السلطة المحلية على إذن بإقامة هذا الاحتفال ، قالوا لباي (أمير) تونس وللسلطات التونسية أنه اجتماع عادي لتكريم ذكرى هذا القديس . فأذنت الحكومة التونسية بذلك ، وقدمت للمؤتمرين الفنادق والسيارات ، كما تبرعت دولة الحماية أي فرنسا من مال تونس بمبلغ مليوني فرنك للاشتراك بنفقات هذا المؤتمر .

أذنت السلطات التونسية بعقد هذا المؤتمر وهي تظن ، كما قيل لها ، أنه للاحتفال بذكرى ميت ، ولكن التحضيرات الأولية انكشفت عن أمور خطيرة

---

(١) بلدة قديمة قريبة من عنابة .

أزعجت أهل البلاد ، فقام أهل البلاد وتقدموا بعرض للباي يحمل تواقيع أكثر من سبع مئة ذات يستنكرون هذا المؤتمر وإليكم نص العريضة :

« يا صاحب السمو :

كنا ظننا أن مؤتمر (سر القربان المقدس) الذي سيجتمع في قرطاج ، أنه اجتماع من الاجتماعات الثقافية الدورية التي يعقدها أتباع بعض الأديان ، ولذا فإنا لم نر ما يمنع من عقده في بلادنا ، لا بل ومن قيام بعض وجهاء البلاد باستقبال المؤتمرين والترحيب بهم ، على اعتبار أنهم ضيوف بلادنا ، كما لم نر بأساً من الاشتراك في لجنة الرئاسة التي تألفت تحت رعاية سموكم .

وتمشياً مع التقاليد المتبعة في كل بلاد العالم التي يرأس فيها المؤتمرات العالمية الملوك والشخصيات الرفيعة التي تعقد مثل هذه المؤتمرات في بلادهم ، مهما كانت غاية المؤتمر ، فقد عملت تونس تحت رعاية سموكم بواجب الضيافة والتسامح أقصى ما يمكن عمله في مثل هذه المناسبة .

ولكن الحقيقة قد تكشفت ، ويا للأسف ، عن شيء غير الذي أعلن ، وإن مؤتمر القربان قد ظهر اليوم بشكل حرب صليبية مغلفة بالحب والسلام التي كان يعتنقها القديس لويس والرامية إلى تنصير إفريقيا المسلمة كما صرح بذلك مطران قرطاج .

إن ما جرى في هذا المؤتمر لا يترك مجالاً للشك بما يخفي وراءه من حقائق . إن فكرة التنصير التي عرضت بوقاحة قد أزعجتنا وفرضت علينا ، ونحن رعيتكم المخلصة الناشئين على شعائر وثقافة إسلامية ، نتقدم إلى سموكم بكل احترام ، راجين أن تنضموا إلى صفوف شعبكم ، وأن تستنكروا الصورة العدائية التي انطوى عليها هذا المؤتمر ، وأن ترفضوا الرئاسة الشرفية التي تفضلتم بقبولها .

إن روح الحروب الصليبية ، وذكر برنامج القديس لويس[1] ، الرامي إلى تنصير إفريقيا ، لا يتركان مجالاً للشك على سوءنية المؤتمرين ، ولا يتمشيان مع آداب الضيافة ، لاسيا في بلاد مضى عليها أكثر من ثلاثة عشر قرناً وهي تدين بالدين الإسلامي .

واعتماداً على ما لسموكم من أفضال ، وعلمنا بتمسك سموكم بمبادئ الإسلام ، وحماستكم في الدفاع عنه وعن إيمان وعقيدة شعبكم تجعلنا واثقين من إجابة طلبنا لكي يبقى الإسلام في هذه البلاد عزيزاً محترماً .

هذا ما كان داخل قاعة المؤتمر وتأثيره على أهل البلاد ، وأما ما كان خارجه فقد كان أفظع إذ خرج المؤتمرون بمسيرات في الطرقات بلباس المحاربين الصليبيين وهم يصيحون مطالبين كبار رجال الكنيسة بشن حروب صليبية جديدة ، ومذكرين بحروب القديس لويس ، وأتوا أعمالاً استفزازية غير ذلك ، منها أن بعض الرهبان اقتحموا الكلية الصادقية ، وأرادوا أن يضعوا أسرة في مسجدها ليناموا فيها ، فقام فريق من الشبان يحتجون على هذه الأعمال ، فألقت الحكومة عليهم القبض » .

لقد قال الزعيم غمبيتا : إن الدعوة ضدَّ الكنيسة ليست بضاعة للتصدير ، ونحن نقول : إنها ليست بضاعة للاستثمار المحلي أيضاً . ثم هل الأكليريكية أو المغالاة بالأكليريكية إلى هذا الحد بضاعة للتصدير ؟ وتعمل فرنسا على تصديرها ؟ ولحساب من ؟ للفاتيكان ؟ ولماذا ؟ لأنه يحصل منا لقاء وقوفه ضد

---

(١) القديس لويس هو ملك فرنسا لويس التاسع ، وكان من أشد أعداء الإسلام والمسلمين ، ولكي يحرر فلسطين من المسلمين أخذ صليبه وذهب إلى دمياط ، فاندحر في الحرب وأخذ أسيراً فافتدى نفسه وذهب إلى القدس ومكث فيها من سنة ١٢٥٠ إلى ١٢٥٤ م ثم رجع إلى فرنسا ، وفي سنة ١٢٧٠ م جمع جموعه وذهب لتنصير الشمال الإفريقي فهلك بالطاعون وبالنظر إلى إيمانه فقد قدس سنة ١٢٩٧ م .

فرنسا على النصيب الأوفر من العطايا والهبات التي تقدم إلى لورد[1] وغيرها من الأماكن المقدسة ، تلك الأموال التي تنفق في غايات غامضة .

إن تونس تعيش في سلام ديني وتحصل مطرانية قرطاج ، من ميزانية الدولة التونسية ، على معونة سنوية قدرها مليون و ٨٠٠ ألف فرنك ، فما الذي دعاها إلى القيام بهذه الأعمال الاستفزازية ؟

يضاف إلى هذا الاعتداء السافر على كرامة الشعب التونسي ومشاعره ما يهدر من أمواله في أمور لا علاقة له بها ، بينما شباب تونس وأطفالها أحق بهذه الأموال ، فهم بحاجة إلى المدارس وإلى المشافي وإلى العناية الصحية ، إذ إن وفيات الأطفال في تونس مرتفعة جداً . وأما حالة التعليم فهي سيئة مثل ماهي عليه الحالة في الجزائر .

لقد شرحت كل هذه الحقائق في نشرات سابقة ، وكل مااستطاعت الصحافة المأجورة أن تفعله إزاء ماقلت ، هو أن تلتزم الصمت وتمرّ وكأنها لاتسمع ولا ترى .

واليوم تمنع الحكومة الطلاب أن يحتفلوا بإخوانهم الذين درسوا في فرنسا ، وتصر أن تعتبر هؤلاء المثقفين غرباء عن البلاد .

إن تونس تابعة لوزارة الخارجية فما الذي جعل هذه الوزارة تسير في ركاب الفاتيكان ؟ يقال بكلام معمىً أن بين فرنسا وبين الفاتيكان اتفاقية سرية تخول الفاتيكان التمتع بامتيازات ذات شأن في داخل البلاد وخارجها . إن ماتنطوي

---

(١) لورد مدينة صغيرة جنوب غرب فرنسا ظهرت فيها فتاة اسمها برناديت سوبيرو قالت إنها حظيت برؤية السيدة مريم العذراء سنة ١٨٥٨ م وظهر على يديها عجائب فاهتمت بها الكنيسة وقدستها ، وبنت لها كاتدرائية فخمة جداً ، ويحج إليها المسيحيون بالآلاف كل أيام السنة ، وينذرون لها نذوراً ضخمة تدر على الكنيسة مورداً حسناً .

عليـه صحيفـة (أكسيون فرانسيز)[1] من بغض لا يكفي لشرح واقع الحـال ، بـل لا بد من وجود قوة خفية تسير الأمور ، وقد بدأت صحيفـة (لامي ده بو يل)[2] تكشف عن بعض هذه الأمور ، وسنرى فيا سيأتي ما يمكن أن نتنبأ به .

وعلى كل حال ، فإن مظاهرة قرطاج كان لها قدرة الإساءة إلى كل القلوب ، ولن يكون الاحتفـال بمرور خمسين عـامـاً على استيلاء فرنسـا على تـونس عـامـلاً لتقريب التونسيين من فرنسا أيضاً . بل سيكون لـه عكس الأثر الـذي تطمع بـه فرنسـا ، وإن العشرة ملايين فرنـك التي طلبت الحكـومـة الإفرنسيـة من البرلمـان الموافقة على تخصيصها لنفقات رحلة رئيس الجمهورية ، بالإضافة إلى عشرة ملايين ستـدفعهـا تونس للغـايـة ذاتها ، يكون من الأفضل أن تنفـق هـذه الأمـوال على مسـاعـدة أهل البلاد التي يعم القسم الأعظم منهـا بـؤس شـديـد إذ أصبـح النـاس يأكلون العشب لكي لا يموتوا جوعاً .

نعم ، إن مشروع رحلـة رئيس الجمهـوريـة يتضن إنشـاء مصحـات لأهـل البلاد ، بالإضافـة إلى مـا ينفق على الرحلـة وعلى المؤتمرين الـذين سيحضرون إلى تونس لدراسة اللغة العربية وآدابها ، أو بمعنى آخر لإبراز ما جنته تونس من فوائـد بعد مرور خمسين سنة على استيلاء فرنسا عليهـا . فمن يريـد هؤلاء أن يخـدعوا ؟ إن المخدوعين لن يكونوا بالتأكيد لا العرب ولا المسلمين . وبالتالي ، فـإن نفقـات هذه الرحلة الرئاسية ستكون من جيب تونس الفقيرة وعلى حسابها .

أما في الجزائر ، فإن إلغاء أكثر المدارس القرآنية ، وعدم إحلال شيء محلهـا ، كانت الغاية منـه أن ينسى الشعب الجزائري دينـه ، لكي يغـدو تنصيرهم أسهل كما يظنون ، فكانت النتيجة أن أصبح ٦٠٠ ألف طفل مسلم مشردين بلا تعليم . إنها أعجوبة التمدن والحضارة .

---

(١) Action Française

(٢) l'Ami du Peuple

إن عدم توفر المال للقيام بأعباء التعليم الذي تدعيه فرنسا ادعاءً لا يقوم على ساق ، حينما نعلم أن هذه الحكومة التي تدعي العجز عن القيام بواجبات التعليم وتنفق ١٢٠ مليون فرنك للاحتفال بمرور مئة عام على غزو الجزائر وهو عمل خاطئ وخاسر . هذا بالإضافة إلى ما تمارسه الحكومة الإفرنسية من اغتصاب أراضي القبائل ، وهو عمل متهمة به كل إدارات الدولة بما فيها الحكومة العامة [١] .

إن قضية قبيلة ولد دياب التي اغتصبت أراضيها ما زالت مستمرة منذ سنة ١٩١٦ م ، وقد سجن زعماؤها بضع سنوات ، ومثلها قضايا اغتصاب أخرى هي موضع تعليقات شديدة من قبل بعض الصحف البارزة دون غيرها . فهل الصحف الساكتة صديقة للغاصبين أو متآمرة معهم ؟

ليست هذه هي الطرق التي تكتسب بها القلوب أيها الإفرنسيون . هذه صرخة شخص عاش في المستعمرات زمناً طويلاً ، يرسلها لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

لما وجد دعاة التنصير أن دعوتهم لا تسير على الوجه الذي يرغبونه قدم عميد كلية الحقوق الجزائرية السيد مورو[٢] إلى لجنة ما بين الوزارات في جلستها ١٤٤ مشروع مرسوم يقضي بمنح الهوية الإفرنسية للذين يعتنقون المسيحية في الجزائر أو في المستعمرات . وبموجب هذا المشروع يقرر حاكم الصلح أو القاضي المسلم أو مدعي عام الجمهورية أو المحكمة البدائية أو محكمة النقض ، بأن صاحب العلاقة طلب اعتناق الدين المسيحي طائعاً مختاراً ، ويوافقون على منحه الجنسية الإفرنسية دون التمتع بالحقوق السياسية .

(١) قسمت الحكومة الإفرنسية بلاد الجزائر زمن استعمارها إلى ولايات على الطريقة الإفرنسية ذاتها ، وأقامت في الجزائر العاصمة مرجعاً أعلى لهذه الولايات أسمته الحكومة العامة ، وكان الحاكم العام هو المرجع الذي ترجع إليه الولايات ، أو هو الحاكم بأمره ، ويرتبط بوزارة الداخلية الإفرنسية .

(٢) Moraud ....

ولكن أحداً من الوزراء لم يجرؤ على توقيع هذا المشروع الذي نشر في الصحيفة الجزائرية (العمل الكاثوليكي)[١] في ١٣ ديسمبر ١٩٣٠ م ، مع تعليق بإمضاء قس أبيض[٢] .

☆ ☆ ☆

لنأت الآن إلى آخر مناورة وهي التي هزت العالم كله منبعثة من المغرب وهو تحت الحماية الإفرنسية مثل تونس ، وبالتالي فإنه يرجع في إدارته إلى وزارة الخارجية ، وتفصيل ذلك كما يلي :

في ١٦ مايو ١٩٣٠ م صدر ظهير (مرسوم) سلطاني يتعلق بالبربر ، وكان السلطان شاباً ، ولا يملك شيئاً من السلطة ، حتى إنه لم يكن يحق له أن يستقبل زائراً إلاّ بموافقة المقيم العام الإفرنسي . وفي هذه الحالة من الضعف ، أجبر على إصدار مرسوم يتناقض مع اتفاقية الحماية ، ولم يبصم الختم السلطاني عليه السلطان نفسه بل رئيس وزرائه ، وهذا المرسوم يتعلق بالبربر ، والبربر يعمرون جزءاً من الشمال الإفريقي يمتد من حدود مصر إلى المحيط الأطلسي وهم عرق نشيط وقوي ، ونحن مازلنا مذ استولينا على الجزائر نعمل جاهدين لكي نفصلهم عن العرب بالدعاية للغتهم ، وبمنحهم دستوراً خاصاً بهم غير دستور القرآن وبإغلاق المدارس القرآنية ، ونعمل بهذه الوسائل وبغيرها لتغيير دينهم .

ولكن كل هذه الجهود لم تنجح ، والبربر ساميون ومسلمون منذ ١٣٠٠ سنة باستثناء فرق صغيرة وهم يعدون ثمانية ملايين نسمة في المغرب .

---

(١) Action Catholique

(٢) الرهبان البيض فرقة تبشيرية أسسها الكردينال (لافيجيري Lavigerie) من أكبر دعاة التبشير بالمسيحية ، وقد ألبس رجال هذه الفرقة لباساً أبيض يلائم جو إفريقيا ونشرهم في إفريقيا يدعون إلى المسيحية . وقد تأسست هذه الفرقة سنة ١٨٦٨ م .

أما مرسوم مايو الذي نحن بصدده ، فقد نص على إخضاعهم لدستور خاص بهم ، يقضي بمعاملتهم بموجب تقاليدهم القديمة ، وأن يخصوا في محاكاتهم إلى (الجماعة)[1] وبذلك أخرجوا عن سلطة دستور البلاد ، وأنشئت لهم محاكم مختلطة ، مؤلفة من قاض إفرنسي يساعده مساعدون إفرنسيون ومن أهل البلاد ، يحكمون بالتقاليد والعادات القديمة القبلية . فلما علم أهل البلاد أن الغاية من هذا المرسوم هو نزع سلطة السلطان الروحية عن فريق من أهل البلاد وهم البربر ، وذلك خلافاً لمنطوق اتفاقية الحماية ، ثاروا ثورة عنيفة ، واستنكروا هذا المرسوم ، لأنه يمس الدستور الإسلامي المرعي في البلاد ، وبالتالي القضاء على الإسلام .

وإثر إعلان هذا المرسوم أسرعت السلطات الإفرنسية وألغت قسماً من المدارس القرآنية ، وسمحت بالإضافة إلى الأربع مئة مبشر مسيحي الموجودين في البلاد ، بدخول ٦٠٠ مبشر آخر مهمتهم العمل على تنصير البربر ، وقد أخذت أموال من الوقف الإسلامي ، وأعطيت لهؤلاء المبشرين لكي يبنوا بها كنائس ، ولم يسمح للبربر ببناء مساجد لهم . فقام أهل البلاد يحتجون ، وقامت مظاهرات في كل مكان ، وألقي القبض على أشخاص ، وعقب ذلك سجن بعض الناس ، وإنزال العقاب البدني على آخرين ، وكان رد الفعل خارج البلاد عظيماً ، مما سنتحدث عنه في فصل آخر .

ولكي يمكن الحكم على مانص عليه هذا المرسوم نرى من اللازم بعد الاطلاع على هذه التعليقات ، أن ننشر دراسة السيد كاريت بوفه (Carette-Bouvet) مدير جريدة (لوكري ماروكن)[2] إذ يقول :

---

(١) الجماعة في العرف القبلي هي محكمة تتألف من شيوخ القبيلة وعقلائها ، وتحكم بموجب التقاليد القبلية المتبعة في القبيلة .

(٢) لو كري ماروكن معناها صرخة المغرب (Le Cri Marocain) ويعلق المؤلف على ذكر هذه =

« إن المرسوم الذي نشر في الجريدة الرسمية للحمية في ١٥ مايو ١٩٣٠ م ، والذي ينظم السلطة القضائية للقبائل البربرية ، والذي أحدث هزة عنيفة لا مبرر لها يجب أن يعرف في خطوطه العريضة ، وفي روحه ، على الأقل ، فهناك أشياء يجب أن يعرف المرء كيف يطرحها ؟ وكيف يشرحها ؟ ولو كانت لاتسر بعض الناس .

لقد حرر هذا المرسوم بصورة غير واضحة ، وترجم بعضه ترجمة غير صحيحة ، ولم يعقب عليه فوراً بالقرار الوزاري الذي يحدد ويعين تطبيقه في البلاد ، بل ترك تحديد ذلك إلى مكاتب الاستعلامات(١) فوضعوه في مجال التطبيق بصورة غير منسجمة . ومع أنه وضع بروح من العدالة ومن الحرية ، فقد جرح عواطف كل الناس من عرب وبربر ، إذ إنه طبق حرفياً على أناس ما كان يجب أن يطبق عليهم قط . إن عدم فهم بعض مكاتب الاستعلامات الناحية النفسية أمر لا جدال فيه ، فهم إذا كانوا يحسنون تنفيذ الأوامر العسكرية التي تعطى لهم ، فإنهم لا يدركون الأمور السياسية ، ولا يحسنون ممارسة الأمور البعيدة عن مجالهم العسكري .

والذي نعانيه اليوم بشأن هذا المرسوم مثال جديد على النظرية التي لم أنفك

= الجريدة بقوله : قرأت في جريدة (أمي ده بوبل) الصادرة في ٢٤ دسمبر ١٩٣٠ م مقالاً على الصفحة الأولى ينعت جريدة صرخة المغرب بأنها جريدة شيوعية ضد الاستعمار وضد الجندية وضد الإفرنسيين . وأقول : إني أطالع هذه الجريدة منذ عشرة أشهر ولم أر فيها أي شيء مما ذكر من السيئات ، بل إني ، على الضد ، رأيت مديرها ، كاريت بوفه ، يدافع بحزم وجرأة عن الإفرنسيين الموجودين في المستعمرات ، وعن المصالح الإفرنسية في المغرب ، ويعرض أحوالهم على رجال الحكم المدنيين والعسكريين الذين يسببون لنا إزعاجاً كبيراً .

(١) إن مكاتب الاستعلامات كلها واحدة من حيث العقلية وقد أشرت في أحد كتبي الأخيرة إلى الأضرار التي تسببها لنا هذه المكاتب .

اشير إليها ، وهي ضرورة جعل الإدارة العسكرية وراء الإدارة المدنية ، وأن يقلل إلى أقصى حد ممكن من صلاحية العسكريين في إدارة القبائل .

أما سبب إصدار المرسوم ، موضوع حديثنا هذا هو أن الظروف اقتضت إضفاء صبغة شرعية على تشريع القبائل البربرية لاأكثر ولا أقل ، فالمحاكم القبلية موجودة عند البربر منذ سنين ولكنها غير منظمة ، ولا يمكن تنفيذ أحكامها في أي مكان من العالم ، حتى ولا في الأرض الإفرنسية من المغرب ، لا بل فإن تنفيذ الحكم الذي يصدر عن المنطقة التي يمارس فيها القانون القبلي يكاد يفقد شرعيته .

ولذا ، فقد كان من البدهي ألاّ يترك الأمر على هذه الحالة غير السليمة والخطرة معاً .

إن الشريعة الإسلامية هي القانون المغربي وكل العرب والمسلمين خاضعين لأحكامها ، وأما البربر من قبائل (شلوح) الذين هم غير مسلمين فلهم تقاليدهم ، فالقبائل المسلمة لها قضاتها ومجالسها وغير المسلمة لها تقاليدها . وكان في تفكير الذين وضعوا المرسوم أن ينظموا التقاليد ، وبالتالي فإن هذا المرسوم الذي اشتكى منه المسلمون لم يكن إلاّ تنظيماً لأمر قائم . وكان الغرض منه ألا يترك من هو بحاجة إلى قضاء من غير قاض ، وألا يجبر المسلمون على التقاضي بموجب التقاليد[1] . ويمكن اعتبار التقاليد البربرية خطوة نحو الإسلام ، وفي نطاق هذه الفكرة أرادت الحكومة تنظيم التقاليد في نطاق الشرعية ، وهي خطة تستحق الثناء .

---

(١) أنا لاأشك بإخلاص المؤلف وإنصافه في القول والعمل ، ولكن يبدو أنه في قضية هذا المرسوم قد خدع بأقوال بعض المستعمرين فقال ماقال ، بينما إذا لم يكن لهذا المرسوم من سيئة إلاّ أن يخلق شعوراً بوجود صنفين من الناس لكل منها تشريع ، لكفى بذلك إجراماً .

هذا ، وقد كان لنا نحن الإفرنسيين في بدء ظهورنا كأمة إفرنسية تقاليد تشبه ذلك ، وما زال حكام الصلح في بعض المناطق يطبقون أحكام التقاليد القديمة في بعض مظاهر الحياة الوطنية .

وقبل هذا المرسوم ، صدر مرسوم آخر يقضي بالاحتفاظ بالوضع الذي كان سائداً والعمل بالتقاليد ، ولكن لما دخلت بعض قبائل الشلوح في الإسلام واتبعت الشريعة الإسلامية في أحكامها ، لم تر السلطة ما يدعو إلى إجبار أصحاب التقاليد على اتباع الأحكام الشرعية ، فأصدرت هذا المرسوم الذي أخذ رجال مكاتب الاستعلامات يطبقونه بصورة عشوائية ، فكان له ردة الفعل هذه ، إذ إنهم لم يميزوا بين قبائل مسلمة وأخرى غير مسلمة . وقيل إنهم ذهبوا في غلوهم إلى أبعد الحدود إذ إنهم أجبروا بعض البربر ، الذين يطالبون باتباع الأحكام الإسلامية في تشريعهم ، على الرجوع إلى القضاء العشائري وأن يتنازلوا عن طلب القضاء الإسلامي .

ويبدو أنه قدْ فات مكاتب الاستعلامات أن الشرع الإسلامي هو الشرع الذي تعمل عليه الدولة المغربية ، وأن التقاليد ليست إلاّ خطوة انتقالية ، أو نقطة بدء للانتقال من البربرية إلى الإسلام الذي هو الغاية الطبيعية لهذا التطور .

إن عصر التقاليد ليس إلا فترة إيجابية عابرة في سبيل الوصول إلى التشريع الكامل ، وإن الاضطرابات التي سببتها مكاتب الاستعلامات ، التي ليس لها القدرة على معالجة غير الأمور العسكرية ، كانت اضطرابات عامة ، وإن بذل الجهد لإفهام هؤلاء العسكر أهمية اللباقة في ممارسة الإدارة هو ضياع للوقت وللتعب أيضاً . وإن عنجهية الطبقة العسكرية وغرورها المسلكي لا يقومان مقام الصفات اللازمة لقيادة القبائل ، في سبيل تطور عميق الجذور ، وإنه لا يمكن

تحقيق أية فكرة بـالجبر والإكراه . إن العرق ينهض في المحيـط الـذي خلق فيـه ، والمحيط المغربي هو المحيط القرآني .

نلاحظ ممـا تقـدم ، أن النظـام الـذي فرض على القبـائل الجبليـة نظـام غير كامل ، فهو يتطلب تعـديلات فـوريـة وإقرار نظـام قضـائي مستقر للبربر ، ثم العمل على تهيئة الإصلاح القانوني .

لقـد تكلم مرسوم ١٥ مـايو ١٩٣٠ م عن القضـاء البربري ولكنـه نسي ، ويـا للأسف ، أن يتحدث عما تكون حـالـة الأقليـة العربيـة أو المستعربـة الموجودة في قبـائل الشلوح والتي تعمل بـالشريعـة الإسلاميـة . لقـد كان هـذا سهواً مؤسفـاً . والـذي حـدث هو أن بعض الأقليـات حرمت من الإفـادة من التشريع الإسلامي السـائـد في المملكـة ، وكان ذلـك بسبب عـدم فهم رجـال الاستعلامـات منطـوق المرسوم فهماً دقيقاً . ومثال ذلك قبيلة بني مطير ، ولها ثلاثـة فروع عربيـة ، وقـد أخرجت هذه الفروع من نطاق تشريعها الـذي تـدين بـه وهو الإسلام وأخضعت للنظام البربري .

لقد كان من الواجب والمفيـد ، أن يـذكر مع المرسوم القرار الوزاري ، الـذي سبقت الإشارة إليه ، والـذي يستثني هـذه الفرق الثلاث العربيـة من الخضوع إلى التشريع البربري ، وأن تترك تعمل بالشريعة الإسلامية ، وأن تعين المنـاطق التي يجب أن تنفذ فيها أحكام القانون البربري ، وهـذا مـالم يعمل في الوقت المنـاسب فهو تأخير فقط .

ومن نـاحيـة ثـانيـة ، فـإن البربر سـائرون ، كما قلنـا ، بخطى واسعـة نحـو الاستعراب . لقد لمت فيما مضى الماريشال ليوته[1] على مغالاته في السعي لتعريب

---

(١) الماريشال (ليوته Lyautey) من كبار رجال فرنسا المستعمرين ، وهو الذي مهـد لنشر الحمـايـة الإفرنسية على المغرب ، وظل في منصب المقيم من سنة ١٩١٢ إلى ١٩٢٥ م ، وهو الـذي أقـام أول معرض استعماري في باريس .

البربر ، والواقع أنه كان على حق ، وكنت أنا على خطأ ، لاسيا وأنا نرى البربر يميلون إلى الاستعراب من أنفسهم . ونحن حينما نتكلم عن الاستعراب إنما نعني ما ينطوي تحت هذا اللفظ من معنى تام ، وهو الإسلام والاندماج في المجموعة الإسلامية .

وهكذا نرى اليوم زعيم القبيلة البربرية الكبيرة (إيت يوسي) يعلن نبذه للتقاليد القبلية واتباع الشريعة الإسلامية .

ومن هذا يبدو أننا قد ارتكبنا أخطاء زرعت عدم الثقة في القلوب ، والشك في أفكار الذين لم يفهموا رغبتنا الصادقة في إضفاء الشرعية على وضع غير مستقيم وغير قانوني معاً ، وقد أحدث سوء تحرير المرسوم وسوء ترجمته أخطاء في تطبيقه كانت لها عواقب مؤلمة » .

وتابع السيد كاريت بوفه تعليقاته القيمة بسلسلة من المقالات المدروسة المعللة التي نشرها بعنوان : (الخطر الآخر على السلام الإفرنسي) ، وها أنا أنقل عنه ماقال مما يتعلق بالتدخل في الشؤون الدينية ، وهو أخطر عامل ، يمكن تصوره ، في بعث الاضطرابات في إفريقتنا الشمالية .

هناك مجلة شهرية تصدر عن الدار البيضاء بعنوان : (المغرب الكاثوليكي Le Maroc Catholique) أججت النار إذ كتبت تقول : إن القديس أوغستن من أصل بربري ومواطن روماني كان قبل ١٦٠٠ سنة نشر المسيحية في البلاد ، فاستنتج المبشرون المتحمسون من هذا القول أن من حقهم العمل على تنصير الشمال الإفريقي من جديد ، ويدعمهم في فكرتهم هذه جماعة كبيرة من كبار العسكريين والمدنيين الإفرنسيين الذين ظنوا أن كل شيء مباح لهم لتحقيق هذه الفكرة ، ولم يدركوا ما يلحقون بفرنسا من أضرار بإشعال نار فتنة دينية في كل مكان ، وبإثارة سخط بلاد بكاملها على فرنسا ، وقد فات هؤلاء المتحمسين أن

الإسلام جاء بعد القديس أوغستن ، وأن البربر مسلمون منذ ١٣٠٠ سنة ، وانه قد قضي على المسيحية قضاءً تاماً في الشمال الإفريقي .

وقال كاريت : إن الإسلام يخاطب جماعات عرقية تنسجم حياتهم المادية والروحية معه انسجاماً تاماً ، وهم يفهمونه فهماً جيداً ، ويوافق أوضاع البلاد ومناخها وحياتها .

هذا ، وإن الإسلام بالنسبة إلى البربر هو المرحلة الوحيدة للوصول إلى النهضة التي يتوخونها ، لا بل وأقول أيضاً إنه هو الحالة الوحيدة الممكنة ، وإن الثورة المقدسة التي تغذي الأرواح في الرباط ، ليس لها من نتيجة إلا أن تخلق عدم الثقة في النفوس ، وتبعث الاضطرابات السياسية[١] والاجتماعية في البلاد ، ويخشى أيضاً أن تعرض سلامة فرنسا للخطر في سبيل تنصير منتوف شعر أو مجذوذ . يا للحماقة !

إذا سئل البربر في أمر أنفسهم قالوا كلهم : إنهم يريدون الإسلام ديناً ، فلماذا ، إذن ، يراد فرض دين على أناس لا يريدونه ؟ لقد وعدنا وعداً صريحاً يوم دخلنا هذه البلاد أن نحترم دين القبائل المغربية وعقائدهم الأساسية . فأين الوعد ؟

إن سلوك وتصرفات الموظفين المتحمسين لنشر المسيحية قد أدت إلى إصدار بيان رسمي من قبل السيد (أوربن بلان Urbain Blanc) الوزير المفوض مساعد المقيم العام والذي هو نفسه أحد المجرمين[٢] . وإليكم البيان :

---

(١) قال (في الرباط) على اعتبار أن الرباط هي عاصمة البلاد ، وأن كبار الموظفين من عسكريين ومدنيين الذين يحرصون على تنشيط حركة التنصير هم فيها . وقوله (منتوف شعر أو مجذوذ) إشارة إلى أن الذين يمكن تنصيرهم هم من الفقراء المعدمين البائسين .

(٢) استعمل الكاتب كلمة (المجرمين) للدلالة على استقباح هذا العمل ، كما استعمل قبل ذلك كلمة الثورة المقدسة من باب التندر .

لقد علمت أن مرسوم ١٥ مايو ١٩٣٠ م المتعلق بتنظيم القضاء البربري قد فهم على غير وجهه حتى من قبل السلطات المحلية ، ولذا أقول : إنه في مثل هذه الظروف يجب ألا يصرف البربر لمقاومة الشريعة الإسلامية ، وأفضل طريقة لتطبيق المرسوم المذكور هي استعمال اللباقة واللطف لطمأنة النفوس وتهدئة الخواطر . إن الذين يريدون اللجوء إلى الشريعة الإسلامية في شؤونهم فمن الأفضل تركهم في حالتهم البدائية ، حتى ولو كانوا يقيمون في مناطق بربرية ، إذ ليس بالإمكان إخضاعهم للتقاليد البربرية بالجبر والإكراه ، لأن ذلك يسبب اضطرابات في البلاد .

أما تلاميذ العلوم الدينية وعلماء الدين الذين يقومون بأعمالهم لدى القبائل البربرية ، بإذن رسمي ، فلا يجب أن يمنعوا من الدخول إلى القبائل ، وكذلك يسمح لشيوخ الطرق الصوفية بارتياد القبائل .

في هذه السطور يتجلى الألم الذي اعترى هؤلاء الناس بسبب وقف هذا العمل مؤقتاً ، كما تظهر بوضوح الرغبة في العودة إليه متى سمحت الظروف بذلك .

وفي الواقع لقد ساءت الحالة في البلاد وما زالت سيئة . فالبربر لم يتركوا الإسلام وقد أعلنوا ، مع العرب ، عدم رضاهم عن المرسوم ، وقد انضم أهل الأرياف إلى أهل المدن حينما ألغت الحكومة المحاكم الشرعية ، القائمة منذ قرون ، وسرحت قضاة القبائل ، وأنهت خدمات معلمي اللغة العربية ، ومنعت البربر من قراءة القرآن ، كما منعتهم من أداء الصلاة ومن التكلم بالعربية ، وأخذت أطفالهم جبراً إلى الكنائس .

ومن بين الموظفين الكاثوليك الذين اشتهروا بحماستهم الشاذة بزعامة

أوربن بلان ممثل بريان[1] ووزير الخارجية ، هو الجنرال (فيدالون Vidalon) القائد الأعلى للجيوش ، والترجمان المقدم مارتي كاتب هذا البيان الاستفزازي ، والذي قام بالاتفاق التام مع مطران الرباط بدعاية واسعة في الأوساط الإسلامية للدين المسيحي يساعدهما ضباط مصلحة الاستخبارات ، وموظفون في مصلحة التعليم وغيرهم ، مما اضطر السلطات أن تعاقب بعض هؤلاء المتحمسين عقاباً خفيفاً .

إن هؤلاء السادة يخضعون ، بلا شك ، لتعليمات الفاتيكان التي يمكن تلخيصها بكلمات هي : الدين وإطاعة البابا أولاً ثم الوطن بعد ذلك .

الآن تبين لي السبب الذي أدى إلى منع كتبي الثلاثة الأخيرة من التداول من غير أن تقرأ ، وذلك أنني تكلمت عن الحرب الصليبية وعن الفاتيكان .

وأضيف إلى كل ماتقدم من أمور شاذة في طريقة الدعوة إلى المسيحية ، هذا الحادث ، وهو أن خوري مدينة مازاكان[2] ـ المغرب ـ دعا من فوق منبره أتباعه أن يعمّدوا المسلمين حتى من غير علمهم بذلك ، وطريقة هذا التعميد الغريب هي أن يتلفظوا بكلمات العادة التقليدية عليهم من غير أن يعلموهم .

---

(١) أرستيد بريان Aristide Briand (١٨٦٢ ـ ١٩٣٢) ، تولى الوزارة ٢٥ مرة وأكثر ماكان يشغل وزارة الخارجية ، وتولى رئاسة الوزارة ١١ مرة ، وكان من أنصار الاتفاق مع ألمانيا ، وهو من مؤسسي عصبة الأمم وحائز على جائزة نوبل .

(٢) مازاكان Mazagan وتسمى اليوم (الجديدة) وتقع على شاطئ الأطلسي إلى جنوب الدار البيضاء .

الفصل الرابع

دفاع العرب والمسلمين

لقد تعدى دعاة التنصير وأتباعهم كل حد في جهودهم الرامية إلى هذه الغاية ، حتى ولو كانت على حساب فرنسا ومصالحها الحيوية واطمئنانها في إفريقيا ، وبكلمة واحدة على حساب السلام الإفرنسي . فكان ذلك القشة التي قصمت ظهر البعير .

وكان استنكار العالم الإسلامي كله لهذا العمل استنكاراً عاماً من جزيرة فورموزا إلى أمريكا ، وبصورة خاصة اتخذت هذه الحركة في مصر ، المركز الثقافي الإسلامي الشهير ، امتداداً عظيماً ، إذ على الرغم من انشغال المصريين بأمورهم الداخلية ، فقد ثار فيها كل متنفس وكل صحافتها ضد هذا العمل ، وإليكم النداء الذي أذيع في كل العالم الإسلامي :

« نداء :

إلى ملوك المسلمين ، وإلى الشعوب الإسلامية ، وإلى علماء الأماكن المقدسة ، وإلى علماء جامعة الأزهر وملحقاتها ، وإلى جامعة القرويين في فاس ، وإلى معهد ديوبند في الهند ، وإلى معهد النجف في العراق ، وإلى جميع الجمعيات الإسلامية في مختلف بقاع الأرض ، وخاصة جمعية الخلافة في بمبي ، وإلى جمعية العلماء في دهلي ، وإلى جمعيات الهند الشرقية ، وإلى المؤتمر الإسلامي في سومطرة ، وإلى الجمعية الإسلامية في جاوا ، وإلى الجمعية المحمدية في جاكرتا ،

وإلى المجلس الإسلامي الأعلى في القدس وبيروت ، وإلى جمعية الترقي الإسلامي في الصين ، وإلى الصحافة الشرقية عامة .

إن الشعب البربري الذي اعتنق الإسلام منذ القرن الأول الهجري ، والذي اعتمد عليه المسلمون في توسيع ممتلكاتهم ونشر ثقافتهم ، والذي كان مستعداً على الدوام لإجابة النداء في ساعات العسرة من تاريخ الإسلام .

إن الشعب البربري الذي رافق أبطاله طارق بن زياد في فتح إسبانيا ، والذي قاتل الإفرنسيين بقيادة عبد الرحمن ، وقاتل في صيقيلية بقيادة أسد بن الفرات ، الشعب الذي زود الإسلام بأسرتين عظيمتين هما المرابطون والموحدون . الشعب الذي أغنى علماؤه ، بأعمالهم الخالدة ، المكتبة الإسلامية . هذا الشعب الذي يعد في المغرب وحده سبعة ملايين نسمة هو اليوم ضحية الإمبريالية الإفرنسية . إن فرنسا تريد اليوم إخراجه من الإسلام ، وأن تسلب منه إيمانه وتقاليده الدينية بفرض نظام عليه يخالف المبادئ الإسلامية ، وهو النظام الذي تريد فرنسا فرضه بقوة السلاح ، من غير أن تعبأ بحرية الاعتقاد والقناعة الدينية . إن تاريخ الإنسانية لم يشهد مثل هذا الظلم قط .

لقد علم مسلمو مصر من مكاتبيهم في المغرب ، وهم أناس جديرون بالثقة ، أن السلطان أصدر ، بتاريخ ١٨ ذي الحجة ١٣٤٨ هـ (١٥ مايو ١٩٣٠ م) مرسوماً يتنازل بموجبه عن سلطته الروحية على الشعب البربري ، وإن فرنسا اعتماداً على هذا المرسوم عمدت إلى تنفيذ مخطط إجرامي وذلك بتكليف القوة العسكرية في المغرب ، بأن تمنع تعليم القرآن في أوساط البربر الذين يشكلون ثلاثة أرباع الشعب المغربي ، وأغلقت المدارس التي كانت تعلم القرآن ، وأقيم بدلاً عنها مدارس يديرها المبشرون الكاثوليك (أكثر من ألف مدرسة) تعمل على تكوين قلوب وأدمغة التلاميذ الصغار من كلا الجنسين . وألغت أيضاً المحاكم

الشرعية ، وهي تجبر البربر الذين يعدون بالملايين على الخضوع بأمر الزواج والإرث وفي كل الأحوال الشخصية لقانون جديد أخذت مواده من عادات بربرية قديمة تعود إلى ماقبل الإسلام ، وهي عادات لاتنطبق على مبادئ المدنية الحاضرة ، ولا على قواعد تليق بجماعة إنسانية في الوقت الحاضر . وعلى سبيل المثال نكتفي بالإشارة إلى التقليد الذي يعتبر الزوجة متاعاً يمكن أن تعار أو تباع ، ويمكن الحصول عليها بالإرث ، وليس لها أي حق في أن ترث زوجها ، ويستطيع الرجل بعقد واحد أن يأخذ من النساء بقدر مايشاء ، كما أن له الحق أن يتزوج من يريد من النساء ، حتى ولو كانت أخته من غير أي مانع . إن تناقض هذا التشريع مع مبادئ الإسلام الإنسانية والاجتماعية يكفي بأن يخرج متبعه من الإسلام .

وهكذا ، فإن فرنسا التي لاتفتأ تردد بأنها دولة ليبرالية من الطراز الأول ، تجبر ملك المغرب أن يتنازل عن سلطته الروحية لتتمتع هي بها ، ولتغدو الحكم الأعلى في قضية التعليم الديني والتشريعي على البربر . إن هذا التنازل لا قيمة له من الوجهة الحقوقية ، وإن السلطة الروحية التي ترمي فرنسا الحصول عليها لا يمكن أن تتمتع بها سلطة أجنبية وتدين بدين آخر .

منذ صدور هذا المرسوم اعتبر الإفرنسيون المدارس الإسلامية كأنها غير موجودة ، وهم يعهدون بتعليم أولاد المغاربة المسلمين إلى المبشرين لتنصيرهم ، ويضعون العراقيل في وجه المواصلات بين المناطق البربرية ، ليحولوا دون الشعب ودون وصول العلماء إليه .

أيها المسلمون !

إن علماءكم من كل المذاهب مجمعون على اعتبار كل مسلم يقبل غير الإسلام ديناً خارجاً عن الإسلام ، فعلى المسلمين أفراداً أو على لسان جمعياتهم المختلفة أن

يرفعوا أصواتهم عالية بالاحتجاج بشدة ، وبكل الوسائل التي يملكونها ، ضدَّ هذه التدابير غير الشرعية والجائرة التي تجعل إخوانكم البرابرة ضحية لها .

إن فرنسا بدل أن تأخذ تدابير منطقية وليبرالية بشأن مسلمي المغرب ، فإنها تعمل لكي تحرمهم من كل وسائل النهوض ، وتمنع التعليم الوطني ، وتنفق أموال الوقف الإسلامي في غير وجوهها من غير أن تحترم وصية الواقف ، وهي لا تعطي المغاربة الحقوق التي تعطيها الأغراب . إن المغاربة الذين نزلت بهم هذه النازلة انحنوا أمامها بانتظار ساعة التحرير ، ولكنهم أمام هذه التدابير التي تمس أقدس معتقداتهم لا يستطيعون هم ولا إخوانهم في الدين ، في كل مكان ، إلاّ أن يثوروا عليها .

على فرنسا أن تدرك أن الإسلام لم يمت ، وأن المسلمين قد استيقظوا ، وأن كل مسلم يدرك الآن مرمى كل عمل ، سواء أكان يضر بمصالحه أم باعتقاده واعتقاد إخوانه في الدين . وعلى فرنسا أن تدرك أيضاً أن بناء مسجد في باريس بأموال الوقف الذي أخذتها من الأماكن المقدسة أو من الإعانات الإفريقية والعالم الإسلامي لا تقنعهم بأن فرنسا دولة ليبرالية ، وأنها تتمتع بصداقة المسلمين الذين تحكمهم ، والذين بسببهم تدعو نفسها دولة إسلامية ، لأن عملها الأخير الذي ارتكبته باعتدائها على أقدس تقاليد الإسلام لا يمكن أن يكسبها إلاّ بغض رعاياها وبغض إخوانهم في الدين .

فإذا لم تتراجع فرنسا ، والوقت ما زال مناسباً ، وإذا لم تلغ التدابير التي اتخذتها في المغرب فسيكون من حق العالم الإسلامي كله ، أن يعتبر الضربة موجهة إليه علناً ، ولن يتأخر عن أن يعلن ذلك من فوق المآذن وفي الصحافة ، وفي ساحات الجامعات ، وفي أوساط جميع الجمعيات .

إن الوقت مناسب لتقدير درجة الليبرالية التي يتمتع بها رجال دولة غربية ، يعلنون أنهم من أنصار حرية العقيدة الدينية . هل نحن بحاجة أن نذكرهم أنهم

أحيـانـاً يحتملون إسـاءات من أشخـاص ، ولا يقـابلونهم بـالمثـل احترامـاً للحريـة الشخصية . إن هذه الحريـة ، اليوم ، موضع امتحـان في المغرب ، فعلى فرنسـا ألا تتدخل في الشؤون الإسلامية .

لقد ارتفعت أصوات أوربا عامة احتجاجاً على روسيا البلشفيـة حينمـا أمرت بإغلاق المؤسسات الدينية ، على الرغم من أن روسيـا لم تمس إلا هـذه المؤسسـات ، من غير أن تحارب عقائـد المؤمنين بهـا . ولـذا فمن حق العـالم الإسلامي أن ينتظر من أوربا أن ترفع صوتها أيضاً لإجبـار فرنسـا على احترام العقـائـد الإسلاميـة في المغرب ، وأن تمنـع التجـاءهـا إلى القـوة المسلحـة لإجبـار شعب مـؤلف من سبعـة ملايين نسمـة على الكفر بعقيـدتـه ، وأن يحرم من كل وسـائـل الاتصـال الروحي بأبناء دينه .

أيها المسلمون !

إن الإسلام في خطر الزوال ، فإذا استمرت فرنسا في برنامجها ، فإن بـاقي دول أوربا لن تتأخر عن أن تحذو حذوهـا ، فعليكم أيهـا المسلمون ، أمـام سـاعـة الخطر هذه ، أن تضحوا بالأرواح والأموال للدفاع عن هذا الحق المقدس . إننا في حـالـة دفـاع شرعي والله يقـول لكم : ﴿ فـلا تخـافـوهم وخـافـوني إن كنتم مـؤمنين ﴾ [آل عمران ١٧٥] ويقـول : ﴿ ولا يـزالـون يقـاتلـونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينـه فيمت وهو كافر فـأولئـك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النـار هم فيهـا خـالـدون ﴾ [البقرة ٢١٧] ويقول أيضاً : ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقـدامكم ﴾ [محمد ٧] ويضيف تعـالى : ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ [الروم ٤٧] » .

الدكتور عبد الحميد سعيد
الرئيس العام لجمعية الشبان المسلمين
في القاهرة

وتـلا هـذا النـداء تـواقيـع أمراء ومـوظفين كبـار وعلمـاء وغيرهم . وأرسلت البرقيـات إلى عصبـة الأمم ، وإلى رئيس الجمهـوريـة الإفرنسيـة ، وإلى رئيس الوزراء السيـد تـارديو Tardieu وإلى كل مكان اقتضى اطلاعه على الأمر . وقـد أعلن الإضراب عن شراء السلـع الإفرنسيـة ونفـذ فعـلاً ، واعتبرت فرنسـا عـدواً للمسلمين .

وفي الأشهر الثـلاثـة من سنـة ١٩٣٠ م ، وعلى إثر نشر كتـابي : (الإسـلام والمسلمـون في الشمال الإفريقي) الـذي أشرت فيـه إلى السيـاسـة التي يجب على فرنسا ، صديقة المسلمين وحليفتهم انتهـاجهـا ، وضربت مثلاً على ذلـك بُعْـدَ نظر نابليون بونابرت ، استقبلت الأوساط العربية والصحافة العربيـة مـاقلتـه بحماسـة وترحيب ، وحيت فرنسا ونشرت مقالات بعـدد من الأعمـدة نـاقلـة إلى كل مكان اقتراحي الصادق .

فبدلاً من أن تفيد فرنسا من هذه الفرصة ، وتمتن علاقاتها بـالمسلمين ، عملت عكس ذلـك ، ومنعت نشر كتـابي المـذكـور ، فـارتكبت بعملهـا هـذا خطيئـة لاتغتفر ، وصرحت علناً بأنهـا لاتريـد أن تكون صـديقـة ولا حليفـة للمسلمين ، ودعمت قولها بالفعل ، فكانت بذلك بعيدة كل البعد عن الكياسة . فلا بد من أن تكون علاقة خارجيتنا بالفاتيكان قوية جـداً حتى يمـارس وزير خـارجيتنـا مثل هذه السياسة التي هي خلافِ مصلحة فرنسا .

وليكن معلـومـاً أننـا لا ننـوي فيما نقـول أن نفضـل دينـاً على دين ، بـل كل مـانريـد هو أن يترك النـاس مطمئنين وأحراراً ، وإلا كنـا نعيش في ظـل محـاكم التفتيش وإنكار كل التعهدات المكتوبة .

إن إنكلترا التي انحرفت عن هذه القاعدة وجـدت نفسهـا أمـام مشـاكل كثيرة اضطرتها إلى المواربة .

قلت السنة الماضية إن الإسلام أخذ يستيقظ ، وإن المسلمين أدركوا أهمية عددهم ، وبالتالي قوتهم وحقوقهم . واستيقظ المسلمون على حقيقة لا يستطيعون تصديقها ، بعد الخدمات التي قدموها للحلفاء ، وهي أن يقف هؤلاء الحلفاء القدامى في وجه المسلمين ويحولوا دونهم ودون انتخاب خليفة جديد لهم ، إذ يظن الأوربيون أن عدم وجود رئيس روحي للمسلمين تكون خاتمة دينهم ، ولكن العكس هو الذي حدث ، ويكفي أن ننظر إلى أفواج الحجاج إلى مكة ، وإلى زيادة الجمعيات الإسلامية في العالم ، وما تحدثه كل صدمة تصيب الإسلام من ضجة عالمية ، بينما كانت أمثال هذه الحوادث تمر في الماضي من غير أن يعلم بها الجمهور .

وإن قضية المغرب مثال صارخ على هذا الشعور العام بعد الضجة التي ثارت على أثر الاستفزازات الصهيونية .

وقد أشار الأمير شكيب أرسلان في مجلة (لاناسيون أراب) عدد يونيو ١٩٣٠ م إلى الوضع الذي أحدثته سياسة الإكراه التي تمارسها كل من فرنسا وإنكلترا وهولندا ، في سومطرة ، وقال :

« إن سياسة العنف لا تأتي قط إلا بعكس ما يعتقد الوصول إليه من غايات ، ومثلها السياسة الموجهة ضد التكتل الإسلامي ، فكلما تشددت الدول الأوربية في مستعمراتها الإسلامية ، في منع المسلمين من التعاطف مع إخوانهم المسلمين ، كلما ازداد هؤلاء تعلقاً بإخوانهم وميلاً إليهم ، ويشعرون بكره نحو مضطهديهم ، ويغدو التقرب منهم الذي يأملونه أكثر صعوبة » .

إن محاولة منع البربر من تعلم اللغة العربية لم يقلل من تعلقهم بالإسلام ، وقد قال أحد رجال السياسة الإفرنسيين : لقد فصلنا تونس عن مكة ، ولكنه كان مخطئاً جداً في قوله هذا ، لأن تونس مازالت متعلقة بمكة كما كانت من قبل .

إن دعاية المبشرين الكاثوليك أو البروتستانت في وسط إفريقيا ، التي قامت بنشاط وتضحيات كان لها نتائج لا يمكن إنكارها إذ اعتنق المسيحية ثمانية ملايين أسود ، فأثار هذا النشاط المسيحي المسلمين في الشمال الإفريقي ، وقاموا هم والطرق الصوفية بالتبشير بالإسلام فأسلم على أيديهم ، باعتراف المبشرين المسيحيين ، أربعة أو خمسة أضعاف من دخل في المسيحية . ومن الجدير بالذكر أن السود الذين اعتنقوا الإسلام ليسوا أقل كراهة للأوربيين من غيرهم من المسلمين .

قبل سنتين عقد في القدس مؤتمر ديني بروتستانتي ضم ٤٠٠ مندوب ممثلين لكل الكنائس البروتستانتية في العالم ، وقرروا علناً العمل على تنصير المسلمين ، فقامت الصحافة الإسلامية بأكملها ضد هذا المؤتمر الذي كان في جملة الأسباب التي أغضبت العرب التابعين لإنكلترا ، ولم تكن لهذا المؤتمر من نتيجة إلا إيقاظ الفكر الإسلامي ، وتأسست جمعيات من شبان المسلمين في كل من مدن مصر وفلسطين وسورية والعراق ، وفي الشمال الإفريقي وغيره من البلدان .

والخلاصة أن الوحدة الإسلامية ، كما يتصورها الأوربيون لم توجد قط ولا توجد الآن ، ولا يمكن أن توجد ، ولكن التضامن الفكري موجود بين المسلمين ، وسيظل موجوداً على الدوام ، وكلما وضعت العراقيل في سبيله كلما ازداد متانة .

وخلافاً لما هو حادث في الأمم المسيحية التي تستعمل كل سلاح لكي يقتل بعضها بعضاً ، نجد المسلمين ، حتى ولو اختلفت لغاتهم يميلون إلى التعاون والتقارب فيما بينهم ، لكي يدفعوا عن أنفسهم أعداء شرسين صامتين ، ولكنهم متفقون على إبادتهم . إن هذا ليس وحدة إسلامية بل هو دفاع عن النفس وتعبير عن كرههم لاضطهاد غير معقول وجوده في هذا العصر ، وضد سوء استعمال القوة وضد الطائفية .

ثم لو حدث أن أدت هذه الحملات الدينية ، في يوم من الأيام ، إلى وحدة إسلامية حقيقية ، وإلى اتحاد تام يجمع كل مسلمي العالم وهو ٤٠٠ مليون نسمة ، ولنذكر دوماً هذا العدد ، فعلى الأمم التي سببت تغيير هذا الوضع ألاّ تلوم إلا نفسها .

إن شدة الرياح تأتي بالعاصفة ، ولنذكر التنظيمات السياسية الآخذة بالانتشار في البلاد العربية ، والتفاهم التام بين ملوك السعودية والعراق والأردن ومعاهدات الصداقة المعقودة بين السعودية وبين كثير من الدول الكبيرة ومنها مؤخراً ألمانيا ، ولنذكر الحظوة الكبيرة التي تتمتع بها فكرة الاتحاد العربي في آسيا الصغرى ، والاستعدادات ذات الشأن التي تتخذها هذه الدول للدفاع ضد كل اعتداء ، ولنذكر التعليمات الآتية من مكة[1] .

وأختم هذا العرض المختصر بإنذار الدول الكبيرة التي تنكرت لتواقيعها وأقول لها : حذار ! ويستحسن ، للمستقبل ، إصلاح الحال فوراً لكي لا تجد نفسها ، في يوم قريب ، مجبرة على ذلك . فهل تفهم هذه الدول ماأقول ؟

---

(١) يحسن المؤلف الظن كثيراً بالعرب والمسلمين ، وربما كان على حق يوم كتب كتابه هذا قبل نحو ستين سنة ، ولو عاش إلى اليوم ورأى ما نحن فيه من شقاق وفرقة لغير رأيه ولا شك .

الفصل الخامس

دوافع الصليبيين

أشرت في الفصول السابقة إلى بعض الأسباب التي تدفع الإسرائيليين الصهاينة والدول الكبيرة للوقوف ضد الإسلام والعرب ، ثم بعد ذلك ضد البوذيين والهنادكة . وهنا لابد من بعض الإيضاحات وبعض الملاحظات التي تساعد على متابعة نسج المؤامرات الخطرة ضد عرق بكامله ودين بكامله . قد يمكن أن أخطىء في بعض استنتاجاتي ، فإذا حدث هذا ، فإني أكون شاكراً للذين يخالفونني الرأي إذا زودوني بالإيضاحات اللازمة ، وبالأسباب الحقيقية التي أدت إلى انحراف وجهات نظر الدول الكبيرة .

ولا بد أن تكون نقطة الابتداء في بحثنا تفكك أوصال الإمبراطورية العثمانية التدريجي خلال قرون ، وتفتتها المتواصل ثم اقتسامها وملحقاتها سراً سنة ١٩١٣ م بين هذه الدول الكبيرة التي اتحدت لهذه الغاية ، ثم اختلفت عند تقسيم الغنائم .

وللضرورة الحربية اضطر الحلفاء أن يعقدوا معاهدة صداقة مع العرب ، وهم ينوون سلفاً عدم التقيد بها ، وهذا مافعلوه بعد النصر معتمدين على قوتهم العسكرية . وكان سبب وقوف الحلفاء من العرب هذا الموقف الشائن نظرتهم الإمبريالية ، ورغبتهم الجامحة في الغزو ، والتنافس فيما بينهم للاستيلاء على بلاد الناس ، ويطفو على كل هذه الأسباب الضرورات الاقتصادية (البترول وغيره) ونهم المالية العالمية وأصحاب رؤوس الأموال الكبار وأتباعهم ورجال الدولة والبرلمانيون والصحفيون من كل بلاد العالم .

وعلى المال تقوم القضية الصهيونية ، ولما كان اليهود هم الذين يملكون المال كان لابد من الرجوع إليهم ، واليهود لا يعطون المال بلا مقابل ، ولذا كان لابد من إجابة طلبهم ، شريطة أن يكونوا هم أنفسهم مستفيدين أيضاً من المال الذي يقرضونه ، ومثال ذلك ثروة البحر الميت .

واليهود لا يعبؤون بنكث العهود وإخلاف الوعود ، ولا بالقضاء على دين أو إفناء عرق في سبيل إشباع نهمهم ، وعلى أن يحكموا العالم بزعماء أقوياء منهم يسيطرون بهم على قادة العالم .

طلب اليهود فلسطين فأعطيت لهم ، فساروا في تحقيق استلامها بالنفس الطويل ، وبإزالة كل العقبات التي وقفت في سبيل هذه الغاية . لقد أراد اليهود الأرض المقدسة لكي يقيموا عليها وطناً قومياً لأنفسهم لا حدود للهجرة إليه ولا للأرض التي يقام عليها ، وعلى أن يكون مستقلاً عن باقي البلاد التي سيقام عليها ، على أن يغدو هذا الوطن القومي دولة ، وأن تصبح هذه الدولة أقوى دولة في العالم ، وذلك بفضل ما لليهود من صلات بكل العالم ، وبفضل القوة الحقيقية التي يتمتعون بها ، وأعني بذلك المال الذي يمتلكونه[1] .

ثم إن هؤلاء الأميين الذين تؤلف بينهم اللغة العبرية ، وتقوم قوتهم على تكتلهم ، فإنهم رغم الجنسيات المتعددة التي يتمتعون بها الآن في الأوطان التي يعيشون فيها ، فإنهم يشعرون أنهم خارج عالم أهل البلاد التي يعيشون فيها ، وأنهم يهود ، قبل كل شيء ، وسيبقون يهوداً . إن هؤلاء الأميين قد اتبعوا بدقة التعاليم المذكورة في كتاب مثير ، مدروس بعناية هو ما يسمى بـ (بروتوكولات حكماء صهيون)[2] .

---

(١) لئن كان هذا القول صحيحاً ، إلى حد ما ، قبل نصف قرن فهو غير صحيح في الوقت الحاضر إذ إن أغنى أغنياء العالم اليوم هم العرب والمسلمون وليس اليهود ، ولكن اليهود يعرفون كيف ينفقون أموالهم ونحن لا نعرف .

(٢) راجع ترجمتي لهذا الكتاب ، وهي أحدث وأدق ترجمة . طبع دار النفائس - بيروت .

تعود كتابة هذا الكتاب إلى سنة ١٨٩٧ م ، وطبع لأول مرة سنة ١٩٠٢ م ، فإذا درس المرء هذا الكتاب دراسة دقيقة ، وكان على علم بخفايا السياسة العالمية والأحوال المالية ، ودقق في سير الصحافة الحاضرة والدبلوماسية ، فإنه لا يستطيع إلا أن يعترف بصدق ما جاء فيه من أقوال ، ترمي إلى غزو العالم واستعباد الشعوب ، وكل شيء متوقع مدروس في هذا الكتاب ومفصل ، وكل شيء يجري في أيامنا هذه ، كما هو مذكور ومقرر ، ومن هذا يبدو أن القوى الخفية التي يتحدث عنها الناس أحياناً موجودة في عالم الحقيقة ، إذن ، وإن جماعة من الأميين الذين لا ذمة لهم ولا ضمير يستعملون هذه القوى . ومهما يكن من أمر ، فإن الواقع هو ما كتبه (روجه لمبلن Roger Lambelin) المعلق على البروتوكولات حيث قال :

إن هذه البروتوكولات تسير سيراً دقيقاً وفق ما جاء في الوثائق العبرية التي نمتلكها ، وإن انهيار روسيا والمواد غير المعقولة التي جاءت في معاهدة الصلح ، وإيجاد حكومة عليا عالمية باسم عصبة الأمم ، وتوطين اليهود في القدس ، كل أولئك أدلة واضحة على صدق برنامج غزو العالم الذي وضع أسسه حكماء صهيون .

والبروتوكول الرابع والعشرون يعدد بدقة الوسائل التي يجب استعمالها لاستعباد الشعوب ، وهي آية في فهم النفسية البشرية .

وإذا درسنا تاريخ إنكلترا الحديث نجد أنها قد استهدفت علناً ، إذ نلاحظ أن عدداً غير مألوف من الشخصيات اليهودية قد عهد إليه بوظائف ومهمات من الدرجة الرفيعة ، بالإضافة إلى الأزمة التي تعانيها البلاد . أما في فرنسا فإن النهضة الفكرية العامة التي كذبت تنبؤات أعدائنا المزعجة قد قاومت ، على الدوام ، مؤامرات هذه القوى الخفية . ونحن على يقين تام من أن فاعلية هذه

القوى ستظـل بـاطلـة في بـلادنـا على الرغم من وجـود صحـافـة مـأجـورة ، ومن النكبات المالية الرامية إلى إلقاء الرعب في النفوس ، والتهـديـد بـالإفلاس ، وعلى الرغم من تـآمر بعض رجـال الحكومـات وتخـاذل كثير غيرهم . نقول على الرغم من كل هذا ، يبدو أن وزارة خارجيتنـا لم تقم بـدور واضح وصريح في هـذا المجـال ، ولا يمكن فهم الغـايــة من مـوقفهـا هـذا ، إلا أن تكـون ســائرة بتعليمــات البروتوكولات ، وعلى سبيل المثال في إثبات ماأقول أقـدم المنـاورات التي حـدثت سنة ١٩٢٠ م وقضت بعـدم إعطـاء رينـاني استقلالهـا ، الـذي كان يشكل حمـايـة لفرنسا لو استقلت ، ثم الأسباب الطريفـة التي جعلت الوزير الـذي خلف السيـد بريان في وزارة الخارجيـة يعتبر نفســه مجبراً على السير بسيرة سلفـه بعـد أن تردد قليلاً[١] .

لقد استنكرت في أحد كتبي السابقة مشروع وصل خط حـديـدي (حلب ـ رياق) ، الذي هو فرع من خط استانبول ـ بغـداد ، بخـط القـاهرة حيفـا الـذي كان القصد من إنشائه خدمة مدينة حيفـا التي أصبحت مينـاء صهيونيـاً إنكليزيـاً عظيمــاً على حســاب الاقتصــاد الســوري ولخراب بيروت ، وقـد رفضت وزارة الخارجية استقبال الوفد البيروتي الذي جاء ليحتج على تمـديـد هـذا الخـط . وقـد استطعت ، بفضــل أصــدقــائي العــاملين في جريــــدة المستعمرين والجيش الاستعماري[٢] ، أن أنشر مقالاً كانت نتيجته إبطال هذا المشروع .

وفي هذا الكتـاب والكتب التي سبقتـه بينت القضـايـا التي يمكن أن يثيرهـا ضدنـا العرب والمسلمون ، وكان من واجب رجـال الخـارجيـة أن يعرفوا كل ذلـك ويتحاشوه ، فمن الذي يسيرهم في هذا الطريق ؟

---

(١) لم يذكر المؤلف هذه الأسباب التي مضى وقتها على كل حال

(٢) Journal des Coloniaux et l'Armée Coloniale réunis

وقد برهنت جريدة (آمي ده بوبل) على إرادة رجال الخارجية المتعمدة بإضاعة المليارات من الادخار الإفرنسي باستدانتها الذهب من الخارج .

وكل هذه الأعمال تؤدي ، برأي المحرضين عليها ، إلى إثارة الرأي العام وإلى ارتفاع الأسعار وإلى الخراب والإضرابات فالثورات .

والارتباط بالفاتيكان يحدث النتائج ذاتها في فرنسا والمستعمرات والبلاد المحمية على السواء . وإذا كان الفاتيكان يرمي إلى سياسة السيطرة ، فإن هذه السياسة تتفق مع سياسة المحرضين على الاضطرابات .

إن الفاتيكان قوي ، لأنه بفضل الاعتراف[1] يطلع على أسرار الأسر ويسمع اعترافات تجعله على علم بأدق أمور الدولة ، ويتمتع الفاتيكان أيضاً بمالية كبيرة بما يأتيه من نذور ، وبالواردات التي تأتيه من الكنائس ، وهي مبالغ كبيرة يستطيع بها أن يحرك العالم[2] .

إن الانكسار والفقر والبساطة التي كانت السبب في نجاح المسيحية في القرون الأولية من وجودها قد تلاشت ، وحل محلها البذخ والإسراف وحب السيطرة ، يرافق كل أولئك غلو من الناحية الدينية ، يزداد يوماً بعد يوم ، بنية الرجوع إلى قوة القرون الوسطى مما لا علاقة له بالدين قط .

---

(١) الاعتراف هنا بمعناه الديني عند المسيحيين وهو أن المسيحيين ، نساءً ورجالاً ، يعترفون يوم الأحد بصورة خاصة ، بعد الصلاة إلى رجل الكهنوت بكل ما ارتكبوه خلال الأسبوع من خطايا فيغفرها لهم ، ويصبحون بلا خطيئة ، إلى أن يرتكبوا خطيئة جديدة ، وهم يعترفون بكل شيء من أمور خاصة وعامة . وفي الكنائس حجرات صغيرة تكثر أو تقل بنسبة حجم الكنيسة ، وهي تتسع لشخصين فقط فيدخل رجل الكهنوت والمعترف هذه الحجرة ، ويعترف المعترف . وقد أبطل البروتستانت الاعتراف في جملة ماأبطلوه من عادات الكنيسة .

(٢) نسي المؤلف أن يذكر المساعدات المالية الكبيرة السنوية المفروضة على بعض الدول .

ويستعمل الفاتيكان ، كقوة ضاربة ، كلاً من إيطاليا وألمانيا اللتان تتنافسان في الحصول على بعض الأراضي التي سوف تمكنهم ، سذاجة بعض رجال الدولة الإفرنسيين وعدم فطنتهم أو تآمرهم ، من الحصول عليها إثر ثورات تنشب بزمن حرب قادمة قد أعدت أسبابها ، وإن الطرق التي يعامل بها العرب والإسلام تجعل الأرض مهيأة للحرب .

الخاتمة

لقد اختصرت ، بقدر الإمكان ، الأحداث الحاضرة التي تهز جزءاً من العالم ، وتجعل نحو ربع سكان المعمورة في اضطراب ، وهي أحداث تستحق أن تبحث .

وهي تؤدي إلى الاضطرابات التي تسعى إليها القوات الخفية القوية المجهولة التي لا تنفك تتابع بجزم عملها المشؤوم .

وعلى الرغم مما تبذله هذه القوات من جهد فإنها لم تبلغ مأربها في آسيا ، فالصين قد رفضت الشيوعية[1] التي هي مقدمة للتسلط الاستعماري ، وهي تعمل الآن لجمع شملها في وحدة وطنية ، فعلى الدول الكبيرة ألا تغضب هذه القوى الوطنية ، لاسيا وأن عدد المسلمين في الصين يزيد على ربع سكان البلاد[2] .

وهناك في الهند مجموعة كبيرة أخرى تعد ٣٠٠ مليون نسمة منهم ٨٠ مليون مسلم ، وكان من نتيجة سياسة قصر البصر التي انتهجها الإنكليز أنها لم تتخذ التدابير المناسبة في الوقت المناسب لإرضاء أهل البلاد ، وها نحن نشهد ، اليوم ، مطالب أهل البلاد تزداد شدة وخطراً على السيادة الإنكليزية ، فإذا انضمت الهند إلى الحركة الآسيوية فسيكون خطرها أعظم .

---

(١) كان هذا قبل أن يستولي الشيوعيون على الصين ويصبغونها باللون الأحمر ، ولكن يبدو أن شيوعية الصين أخف وطأة من شيوعية موسكو ، وهي أقرب إلى الحرية ، والله أعلم .

(٢) لست أدري من أين أتى المؤلف بهذا العدد المبالغ به . والشائع أن عدد المسلمين في الصين يتراوح بين ٥٠ وبين ١٠٠ مليون نسمة ، وكلها تقديرات شخصية ، ولا يوجد إحصاء رسمي على ماأعلم .

ثم بعد ذلك يأتي العرب ومناطق المسلمين الحساسة التي تمتد فروعها إلى إفريقيا كلها ، والإفريقيون الذين اضطهدهم الأوربيون لم يعودوا يثقون بصدق الدول الكبيرة التي نقضت كل تعهداتها المكتوبة ، وأصابتهم في عقيدتهم ، وفي حياتهم الخاصة أيضاً ، وأخضعت بعضهم للأغراب ، فهم مستعدون أن يعملوا كل ما يستطيعون عمله لاستعادة استقلالهم . فمن يجرؤ على لومهم ؟

أما فرنسا ، التي هي محور حديثنا على اعتبار أنها الوطن الأم ، فماذا يجب عليها أن تفعل في هذا الوضع القائم ؟ هل لديها القدرة ، على الرغم من الاختلافات الداخلية وتحريض الرعاة المزورين المستأجرين[1] من قبل الأجانب أو المعجبين بهم ، على الأقل ، على أن تضرب صفحاً عن الماضي وتنساه ؟ لقد كان على رأس فرنسا ملوك ووزراء يعرفون كيف يقاومون كل عرض مغر يأتي من الخارج ، وكان لهم هدف واحد هو : عظمة فرنسا ، ونحن نعرف اليوم أمثال أولئك الأبطال ممن لا يشك بنزاهتهم وقدرتهم على تعويم مركبنا وإيصاله إلى شاطئ السلامة ولكنهم مبعدون عن الحكم .

فلو كان حكامنا يرون الأمور بعين العقل والمنطق لأدركوا أننا نسير بسيرة جيراننا الحساد أو الأعداء الذين يجب أن نتخلص من سيطرتهم المشؤومة بأسرع ما يمكن .

وإليكم هذا النداء الصارخ ، والدال على ما يراد بنا ، وهو عبارة عن نشرة بحجم ١٦ × ٢٣ سم مكتوبة بالعربية ومطبوعة في سن باولو ـ البرازيل ـ وعندي نسخة منها ، وقد وزعت في كل البلاد العربية ، وفي رأس هذه النشرة صورة تمثل جيوش المستعمرات وبيد أفرادها البنادق وهي متحفزة للهجوم ، وهذه الصورة مأخوذة عن صورة دعائية نشرت أثناء الحرب العامة (١٩١٤ م) لإحياء ذكرى

(١) يريد بذلك الإشارة إلى الحكام .

يوم الجيش الإفريقي وجيوش المستعمرات ، وقد كتب حولها وتحتها العبارات التالية :

فوق الصورة : إن العالم الإسلامي يدوس بعضه بعضاً .

وكتب على يسار الصورة : مرحى ! لأعمال البطولة التي يقوم بها الأمير عبد الكريم الخطابي ، الذي نفاه المستعمرون ظلماً وعدواناً .

وكتب على الجانب الأيمن : مرحى للثورات : الجزائرية والتونسية والمغربية والسورية وغيرها من البلدان التي استعبدها المستعمرون .

وتحت الصورة : إن أهل المستعمرات يدافعون بسيوفهم عن المستعمرين ، والمستعمرون يزعمون أنهم يحمونهم .

يرى القارئ في هذه الصورة التي نشرتها مجلة إفرنسية خلال الحرب العالمية ، والتي ننقلها عنها عظم كذبة هؤلاء المستعمرين الذين جعلوا أهل البلاد المستعمرة يعتقدون أنهم إذا حاربوا إلى جانب فرنسا ضد الألمان وضحوا بأرواحهم لإنقاذ فرنسا ، فإنهم إنما يقاتلون في سبيل العدالة والحق ، كما هو مكتوب في رأس النشرة . ولكن النتيجة كانت إحراز فرنسا النصر بسيوف المسلمين ، ولم ينل المسلمون جزاء عملهم هذا إلاّ الظلم ، واستيلاء المستعمرين على أملاكهم وعلى بلادهم ، بالإضافة إلى استعبادهم ، وبإضافة كلمة الدولة الحامية ، والحقيقة هي أن المسلمين أهل المستعمرات هم الذين يحمون المستعمرين بسيوفهم وبسواعدهم .

إن كل مانقوله مذكور في الصورة المذكورة ، فعليكم ، أيها المسلمون ، بدل أن تقتلوا الألمان بسيوفكم وبرصاصكم ، وهم الذين لم يستعمروا بلادكم ، وبدل أن تقتلوا السوريين[١] وتقتلوا مواطنيكم أمثال عبد الكريم الخطابي ، اقتلوا الذين يحتلون بلادكم ويضطهدونكم ليل نهار .

---

(١) إشارة إلى ماحدث لما نشبت الثورة السورية سنة ١٩٢٥ م إذ استعان الإفرنسيون بجيوش الشمال الإفريقي لقتال السوريين .

ومن الذي يستطيع أن يلومكم إذا مافعلتم ذلك ، أو طالبتم بالحرية لبلادكم ؟ وكما أنكم أنقذتم فرنسا من أيدي الألمان أنقذوا أنفسكم من العار والعبودية . وإذا سألكم الإفرنسيون بأي حق تثورون ؟ ولماذا تعملون لطردهم من بلادكم وأن تلقوهم في البحر ؟ أروهم ساعتئذ هذه الصورة وقولوا لهم : إنكم قلتم لنا أننا نحارب في سبيل الحق والعدالة والحرية ، وإن حربنا إياكم هي في سبيل الحق والعدالة والحرية . موتوا أيها الجزائريون . موتوا كراماً ولا تعيشوا أذلاء .

وتنتهي هذه العبارات ببيت من الشعر العربي معناه الموت أفضل من حياة العبودية .

هذا مانشرته مجلة القلم الحديدي التي تصدر عن سان باولو . فبماذا نجيب نحن الإفرنسيين ؟ ماعلينا ، نحن الإفرنسيين ، إلا أن ننكس رؤوسنا خجلاً ، بعد أن كنا نعرف بأننا شعب نبيل وصادق .

ماذا نقول حينما نقرأ أقوال برلمانيينا المشهورين الذين أرسلوا إلى جنيف مندوبين عنا ؟ إليكم مقتطفات من مقال عن الصهيونية ظهر في مجلة (الأحياء)[1] في نوفمبر ، بقلم هنري ده جوفنيل الشيخ الراديكالي الاشتراكي قال :

« إن التمسك بالقضية الصهيونية قد أفقد أوربا كل نفوذها في الشرق ، وفقدان مصداقيتنا في آسيا معناه ضياع كل قيمة أوربية وتعريض الفوقية الأخلاقية في حفظ العهد التي عرفنا بها للخطر ، لاسيا وأن الشرقيين حساسون جداً من هذه الناحية » .

أقول : لقد كان من الواجب على السيد ده جوفنيل ، المفوض السامي في سوريا ولبنان سابقاً ، قبل أن يكتب هذه السطور التي يحمل بها علينا نحن

(١) La Revue des Vivants

الإفرنسيين ، أن يذكر أن دخولنا إلى هـذه البلاد (سوريـة ولبنـان) واستيلاءنـا عليها وطريقة سيرنا فيها ، ومعاملتنا أهلها وكأنهم أعداء ، وهم الذين حـاربوا إلى جانبنا كشركاء ، أقول إن سيرتنا هذه أثبتت للعرب أننا لانحترم عهودنا وخـاصـة اتفاقات ١٩١٥ م مع الملك حسين . لقد كان الأحرى بالسيد ده جوفنيل ألا يفتح فاه ويتكلم .

إن أمثال هذه الأعمال تزيد في إلحاق الضرر بنا والنقمة علينا ، كما كتب إلي صديق مغربي على ثقافة إفرنسيـة عـاليـة قـال : لا حـاجـة بي إلى التحـدث عن المؤامرات الأجنبية التي تعمل المستحيل للإفادة من النقمة العامة على فرنسا .

إنـه من المـؤسف أن نرى وزراء وبرلمـانيين وأسـاتـذة مشهـورين وصحفيين حصيفين وكثيراً من المستعمرين (غير المستعمرين الصادقين) لا يدركون الحاجـة إلى تغيير اعتقاداتهم القديمة ، وأن يماشوا متطلبات الوقت الحاضر ، فـإنهم بتمسكهم بأخطائهم السابقة يفسحون المجال واسعاً أمام المؤامرات التي تحدث عنهـا صـديقنـا المغربي آنف الذكر ، والحالة واحدة في الهنـد الصينيـة وفي إفريقيـا الغربيـة ، وفي الكمرون ، وفي الشمال الإفريقي .

ومنذ وقت قريب أكد السيد تـارديو ، رئيس الوزراء على ضرورة فهم معنى الـدولـة ومعنى الإمبراطوريـة ، وقـال : إن إمبراطـوريـة تضم ١٠٠ مليـون نسمـة يؤلفون كتلة متراصـة ، تقتضي منـا سيرة غير التي نحن عليهـا ، وإلا كان كلامنـا هراء لا معنى له . إن الوقت مازال مؤاتيـاً ، فعلينـا أن نعمل لصـالحنـا ولسمعتنـا وصالح أولئك الذين نحن عنـدهم . وأمـا الأقوام المستعمرة الأخرى فـإنـا نرجو لهم الشيء ذاته لكي يعيش العالم بسلام .

(٢)

الإسلام يُدافِعُ عَنْ نَفْسِهِ

EUGÈNE JUNG
Ancien Vice-Résident de France au Tonkin

L'ISLAM SE DÉFEND



PARIS
Chez l'auteur, 50, Avenue Malakoff (16°)
et dans les principales librairies

1934

تقديم المترجم

لقد مضى وقت هذا الكتاب بكل ما حواه من أفكار صائبة ، ونظرات ثاقبة ، ودواء ناجع ، لأدواء مبرحة كانت تفتك في جسم المجموعة البشرية يوم كتابته ، فعالجها الكاتب الفاضل بحكمة وروية وعقل ، ودعا أرباب الحل والعقد من بني قومه إلى سلوك سبل الرشاد ، ولكنهم لم يسمعوا له قولاً ، ولا وعوا نصحاً ، وقد ذهبت تلك الأحداث مع أمس الدابر ، وذهب معها أهلها ، بخيرهم وشرهم وكأنهم لم يغنوا بالأمس ، وتبدلت الأرض غير الأرض ، والناس غير الناس ، وإذا كان قد بقي شيء من آثار ذلك الماضي فإنما هو الحسرات والآهات على مآفات ومعها ترديد قول : لعل ، وياليت ، وهيهات .

ولكن من حسن حظ الإنسان أن دروس الحياة لاتنقطع ، وأن التاريخ هو بداية أبدية ، كما يقولون ، وأن ما كان بالأمس لابد وأن يحدث اليوم أو غداً ، لأن حوادث الدهر تتكرر في مضمونها وإنْ اختلفت في مظاهرها وأشكالها مع اختلاف الذين يتعاملون معها من خلق بعد خلق ، فالعاقل هو الذي يفيد من حادث الأمس ، الذي مرّ آباؤه به ، ليعالج حادث اليوم الذي هو فيه .

لقد مضت أحداث هذا الكتاب التي قلبت وجه الأرض ، وغيرت معالم الحياة ، ومضت معها عوالم ذاك الزمن ، وما أظن أنه بقي على وجه الأرض من شاهد تلك الأحداث أو شاهد بعضها أو عاناها أو شارك بها أو ببعضها أو عرف الذين تولوها غيري ، ولما كنت على وشك الرحيل عن هذه الحياة فقد رأيت من واجبي نحو مؤلف هذا الكتاب الصديق أوجين يونغ ونحو الأجيال الصاعدة أن أبعث هذه الآراء من مرقدها لأبناء لغتي لتبقى شاهد حق ، وناطق صدق ، على

أمور تاريخية مرت بهذا الدهر ، وأدركها عقلاء سبقوا زمانهم حكمة ودراية وبعد نظر ، وكانوا ينظرون بنور الله بينما كان غيرهم يمشي في الظلام والعصابة على عينيه أيضاً .

وسيرى القارئ في طيات هذا الكتاب الآراء التي عرضها مؤلفه ونصح بها بني قومه وأرباب الحل والعقد ، داعياً إياهم إلى إصلاح شأنهم مع العرب والمسلمين ليجلبوا لأنفسهم الخير ، ولكنهم أغمضوا عيونهم عن رؤية الوقائع وصموا آذانهم عن سماع كلمة الحق ، فأضاعوا أنفسهم وخسروا دنياهم .

ولو كان الإفرنسيون نظروا إلى الأمور بعين البصيرة التي نظر بها أوجين يونغ ، وكان الإخلاص رائدهم ، والمصلحة العامة هدفهم ، وحب البشرية شعورهم ، ولم يكونوا منقادين بزمام الأهواء ، وساروا في نطاق السياسة الحكيمة التي رسم لهم خطوطها الواضحة ، ووضعوا أيديهم بأيدي العرب والمسلمين ، وعملوا معاً لصالح الفريقين لكانوا اليوم أعظم قوة في الأرض علماً وفنّاً وقوةً ومكانةً وجاهاً ، ولكانت كلمتهم هي العليا .

وإذا كان لنا من عزاء على مافات فهو أن ما كان صادقاً بالنسبة إلى الأمس هو صادق بالنسبة إلى اليوم وإلى الغد أيضاً ، وأن الأمة الغربية التي تضع يدها بأيدي العرب والمسلمين تستطيع اليوم أن تسيطر على كل العالم وستكون هي الحكم الفرد وصاحبة القول الفصل في هذا الكوكب الأرضي ، ولن تستطيع أمة غربية مهما كانت قوية مادة ومعنى أن تبلغ الأوج إلا إذا كان العرب والمسلمون معها .

ليس هذا قول سائر في ظلام أو سابح في سماء الأوهام ، بل هو قول مدرك لحقيقة ماينطوي عليه العالمان العربي والإسلامي من طاقات مادية ومعنوية ، وإمكانات لا حدود لها ، ولا توجد إلا فيهما ، وإن العرب والمسلمين هم القوة التي ترجح كفة الذين يتعاونون معهم .

لقد أضاع الإفرنسيون الوقت الذي كان يجب عليهم أن يغتنموه ، ويقطفوا ثمراته لواتبعوا هذه الآراء الحكيمة يوم كانوا قوة عظمى ، وكانت تلك السياسة ليلة قدر بالنسبة لهم ، فأضاعوها ، ولن يستطيعوا أن يحصلوا عليها ثانية ، لأن الحظ يأتي المرء مرة واحدة ، فإذا لم يأخذ به أضاعه . وإذا كان الإفرنسيون قد أضاعوا هذه الفرصة ولن تأتيهم ثانية ، وذلك لأنهم فقدوا مكانتهم التي كانوا عليها ، والتي كانت تمكنهم من قطف هذه الثار ، وأما اليوم فقد أصبحوا ضعفاء وقد سبقهم آخرون إلى الميدان ، ولم يعد ينفعهم كلام على مافات ، ومافات مات ، والعاقل هو الذي يعمل بقول الشاعر :

إذا هبت رياحك فاغتنمها ... فلا تدري السكون متى يكون

وإن درت نياقك فاحتلبها ... فلا درى الفصيل لمن يكون

أما نحن ، العرب والمسلمين ، فإننا قد ازددنا قوة عما كنا عليه من قبل ، وازددنا وعياً وإدراكاً ، وإننا في عنفوان شبابنا ، فالأمل كبير بأن نغتنم الفرص الحاضرة والآتية لنكون حكماً عدلاً في هذا العالم المحتاج إلينا .

التقديم

بقلم

أوجين يونغ

نائب المقيم الإفرنسي في تونكن سابقاً

بعد أن ضاق المسلمون ذرعاً بما يقاسونه من هجوم على دينهم ، وما يعاملون به ، في كثير من الأحيان ، وكأنهم مخلوقات دنيا قرروا - وهم يعدون ٣٧٥[١] مليون نسمة - أن ينهضوا نهضة عامة ، وهم عازمون على أن يفرضوا احترامهم وسيادتهم على العالم .

إن هذا الكتاب الصغير يضم كل الدول والأقليات الإسلامية ، ويعرض الأعمال التي تمت على أيديهم ، ويشير إلى الوسائل الفعالة التي يمتلكها الإسلام ليفرض إرادته ، وهي وسائل قوية وفعالة في تدعيم السلام أيضاً .

فعلى فرنسا أن تدرك أن مستقبلها وقوتها وأمنها وسمعتها تتطلب تفهماً أعمق وأدق لسياستها نحو الإسلام .

إن هذا الكتاب يضم الفصول التالية :

١ - اعتبارات عامة .

٢ - ثقل الإسلام في العالم كله .

٣ - الشمال الإفريقي .

٤ - الخلاصة .

---

(١) كان هذا عدد المسلمين في العالم قبل ثلاثة أرباع القرن وأما اليوم فإن عددهم يبلغ نحو مليار نسمة .

مقدمة المؤلف

بـدا لي واضحـاً من كل محـادثـاتي مع أنـاس من جميـع الطبقـات ، من ذوي الثقافة العالية ، أنه لا يوجد (بين الإفرنسيين) من يقـدر أهميـة الإسلام في العـالم تقديراً صحيحاً من النواحي الدينية والسياسية والاقتصاديـة والاستراتيجيـة ، بل الإسـلام في نظر أكثر النـاس لا يمثـل شيئـاً مـذكـوراً خـارج الشمال الإفريقي والشرق[1] وفيما عداهما فهو مبهم وغامض .

ولـذا رأيت من اللازم تصحيح هـذا الوضع وبيـان الحقيقـة وأرجو أن تؤدي هـذه الـدراسـة إلى فهم أصح كما آمـل أن تعـدل ، حكـومـات الـدول الكبيرة على الأقل ، موقفها من الإسلام وأن تحسن سيرتها تجاهه .

وعلينـا ، نحن الإفرنسيين بصـورة خـاصـة ، أن نصحـح وضعنـا تجـاه العـالم الإسلامي ، ونـدرك أننـا نستطيع أن نكـون حلفـاء وأصـدقـاء للمسلمين ، وسيرى القارئ من مطالعة هذا الكتـاب ، مـاستحصل عليـه بلادنـا من سعـادة إذا سرنـا بعدل وعقل .

في سنة ١٩٠٦ م نبهت في أول كتاب لي إلى : (أزمة الغـد العـالميـة) وكادت هذه الأزمة تنفجر سنة ١٩١٢ م لو كنـا فهمنـا مصلحتنـا ، لأنهـا كانت عـاملاً من عـوامـل السـلام ، ولكنهـا تـأخرت إلى سنـة ١٩١٥ م ، ويبـدو اليـوم أنهـا آخر الأزمات . فلو كان عندنا ، في ذاك الوقت ، حكومات أقل تأثراً بقضـايـا المنـافع

---

(١) قال الشمال الإفريقي والشرق لأنهما كانا تحت السيطرة الإفرنسيـة ، ويقصـد بـالشرق : سوريـة ولبنـان ، وقد استعمل هذا التعبير مراراً .

المالية الكبيرة وبالأفكار الاستعمارية الجامحة لكنا سبقنا العقيد لورانس أولاً وبعده فيلبي في سبيل منفعتنا السياسية . إننا دوماً نضيع الفرص . فلنكن على حذر .

في ١٥ ديسمبر ١٩٣٣ م **أوجين يونغ**

الفصل الأول

اعتبارات عامة

الإسلام ـ قوته ـ دفاعه

اتسمت سنة ١٩٣٣ م بنهضة إسلامية عالمية ، وهي النهضة التي تنبأت بها في آخر كتاب لي هو : (يقظة الإسلام والعرب) . وباستثناء بعض الحالات التي سأشير إليها والتي مرَّت بها الصحافة صامتة أو ذكرتها ، وتعمدت التقليل من أهميتها أو شوهتها ، لدي الآن مئات الرسائل المهمة التي أتتني من جميع أنحاء العالم من شخصيات مسلمة رفيعة المقام ومن أناس بسطاء صغار ، وكتب هذه الطبقة تعطي الأمر الأهمية والمكانة اللائقة به ، وعلى الرغم من سكوت الصحافة المؤسف عن ذكر الحقائق ، فقد بدأت الحقيقة تظهر للعيان من غير دعاية ، فعلى الرأي العام العالمي ، وعلى فرنسا خاصة ، أن تدرك خطر الموقف .

قلت منذ بدء سنة ١٩٣٣ م : أيجوز لـ ٣٧٥ ـ ٤٠٠ مليون مسلم ، أي ما يزيد على خمس سكان العالم ، وهم يعتنقون ديناً هو أكثر الأديان إنسانية واجتماعاً ومنطقاً وبساطةً ، أن يكونوا تحت نير بعض الدول ، وأن يساء إليهم في عقيدتهم وفي ممتلكاتهم وفي حريتهم ؟

بأي حق يتمسك الأقوياء بهذا الوضع في هذا القرن المتطور وفي الوقت الذي تكثر فيه الأحاديث عن ضرورة العمل لإصلاح ما في القوانين الاجتماعية من نقص بغية إعطاء كل فرد من أفراد المجتمع وإعطاء الشعوب أيضاً وضعاً يتماشى مع أسباب الحضارة التي تسير نحو الأفضل باستمرار ؟ هل لأن هذا الدين ، بما انطوى

عليه من منطق ، يلقي شكوكاً على عقائد ديانات أخرى وخاصة الكثلكة ؟ فإذا ظلت الكثلكة مستمرة في رغبتها المزمنة في التسلط على العالم ، ولم تتبع الاكتشافات الحديثة التي تهدم جزءاً كبيراً من مبادئها ولم تعدلها فما عليها إلا أن تلوم نفسها بدلاً من أن تتآمر مع بعض أقوام آخرين لمطاردة الدين الذي يبعث السرور إلى نفوس جماعات كثيرة ، والذي يزداد تابعوه يوماً بعد يوم ، على الرغم من الحملات التي تشن عليه .

إن حرية العقيدة حق مطلق لا يستطيع أحد أن يمسه اللهم إلا أن يكون مبتغياً استعباد الإنسان استعباداً تاماً وإنزاله منزلة الحيوان الأعجم . ويا لسوء عاقبة من يرتكب هذه الجريمة ، فإنه سيعاقب عقاباً صارماً عاجلاً أو آجلاً ، ويا لبؤس الحكومات التي لاتعرف واجبها وتنغمس في هذه الحمأة لغايات دنيئة .

لقد قلت : سيعاقب عقاباً صارماً عاجلاً أو آجلاً ، وهذا خطأ ، فكلمة الآجل غير صحيحة هنا ، بل الصواب هو العاجل ، لأن فكرة الحرية أخذت تنتشر في كل صقع من أصقاع العالم ، وهي تسير بسرعة عجيبة ولا يستطيع شيء إيقافها . فهل تفهم بعض الأوساط هذا القول ؟ أو هل نحن بحاجة إلى طوفان جارف لكي نغير تفكيرنا ؟

إن الكنيسة الكاثوليكية ، التي هي أكثر الأديان تأخراً ، وأكثرها مغالاة ، وأكثرها تسلطاً من جميع الأديان حرة بأن تتبع هذه السيرة ، ولكن على الحكومات التي تتبعها في سيرها أن تفكر بأمر استقرار الدول التي تقوم على إدارتها ، قبل أن تنهج هذه السياسة المشؤومة . خطر ماتفعل . وأنها تقود بلادها إلى كارثة .

لقد عملت الدول الكبيرة كل ماتستطيع عمله لكي تحول دون المسلمين ودون انتخاب خليفة لهم يجمعهم على صعيد واحد وتحت راية واحدة ، ويكون له

صوت مسموع في العالم مثل صوت البابا ، وظنت هذه الدول أنها بعملها هذا تستطيع أن تقضي على إرادة المقاومة عند المسلمين ، وقد فات هؤلاء الحكام أن الإيمان لا يموت ولا يمكن القضاء عليه ، وقد رأينا هذا في بداية المسيحية التي نمت رغم كل التنكيل لأنها كانت تنطوي ، في جملة ماتنطوي عليه من مبادئ ، على أمر اجتماعي عظيم بإعلانها المساواة بين البشر أمام الله . وأضيف هنا أن بعض الأقوام لاتود ، بأي ثمن ، أن تتدخل بأمور الدين بل تترك لكل امرئ الحرية بأن يمارس الدين الذي يريده . وهذا عمل العقلاء .

وبالإضافة إلى القضية الدينية هناك سبب آخر للاضطرابات وهو وجود بعض الأقوام المسلمة في وضع التابع وأحياناً في وضع مذل والعمل على إبقائهم فيما هم فيه   وباستثناء بعض الدول المسلمة المستقلة فإن أكثر المسلمين اليوم تحت حكم الدول الكبيرة ، على الرغم من أنهم ، في الغالب ، يشكلون في كل مستعمرة أو محمية الأكثرية الساحقة ، وقد اغتصب الغزاة الجزء الأكبر من ممتلكاتهم وهم يحكمونهم بقوانين جائرة ويعتدون على دينهم ، وقد أغلقت مدارسهم القرآنية ، والأكثرية من أطفالهم محرومون من العلم . والعاملون منهم يتقاضون رواتب ضئيلة ، وإذا طالبوا بالعدالة وتفهم أحوالهم اتهموا بالانطواء على مشاعر عدائية للمستعمر .

هذا ، مع العلم أن الإسلام لا ينكر أن يعيش المسلمون في دول غير مسلمة ولكنهم يطالبون بالمساواة ، مع غيرهم من المواطنين من غير دينهم ، بالحقوق والواجبات . ولم يزعم المسلمون قط أنهم يودون أن يؤسسوا دولة عالمية تجمعهم تحت راية واحدة .

ولنذكر دوماً الأمور الآتية وقد نشرتها في مقالين في جريدة : (صوت ابن البلد)[1] التي تصدر عن قسنطينة (الجزائر) ونقلتها الصحف العربية وكذلك

(١) La voix Indigène وهي جريدة كان يصدرها أحد الجزائريين باللغة الإفرنسية لكي يسمع الإفرنسيين صوت الجزائري .

صحيفة : منبر الشرق التي تصدر عن جنيف[1] ، وكانت المقالة الأولى بعنوان : (مصائر العرب والإسلام في المستقبل القريب) .

في ٢ مارس ١٩٣٣ م قلت في كتابي (يقظة الإسلام والعرب) : إن هذا التجدد وهذه الطفرة إلى الأمام اللذين يصدران عن أناس ينتمون إلى عرق عظيم ودين طاهر لم يعودا محصورين في آسيا وإفريقيا فقط بل قد امتدا إلى أوربا أيضاً . وإن الطبقة المختارة من المسلمين تعمل بكل قواها لكي تحتل المكانة التي كانت تحتلها في القرون الماضية . وإلى جانب هذه الطبقة المختارة هناك أناس بسطاء يسيرون بهذه السيرة بعزم . فهي ، إذن ، حركة عامة شاملة .

سألني بعض الناس بنوع من الاستفهام الممزوج بالسخرية قائلين : وماذا يستطيع هؤلاء أن يفعلوا ، هل يظنون أنهم يستطيعون أن يغزوا العالم ؟ قلت : كلا ، إنهم لا يستطيعون أن يغزوا العالم ولا هم يطمعون بذلك ، وإن طموحاتهم ليست طموحات جامحة لا حدود لها ، بل كل ما يطمعون به ويطمحون إليه هو أن يصلوا إلى وضع لا يعاملون فيه على اعتبار أنهم كمية مهملة ، وأن يروا العالم يعترف بحقهم في الحياة والحرية في كل مكان ، ويروا دينهم محترماً كما هم يحترمون أديان الآخرين ، أما كيف يصلون إلى هذه النتيجة وسياسة الاستعباد ما زالت مستمرة ومنها ما يظهر من جديد ؟ نقول للإجابة على هذا السؤال : إنه يمكن الرجوع إلى عوامل كثيرة قد تكون أدبية أخلاقية أو سياسية أو دبلوماسية .

---

(١) جريدة منبر الشرق La Tribune d'Orient كان يصدرها صديقي المرحوم الشيخ علي الغاياتي المصري ، باللغة الإفرنسية في جنيف . وقصة هذا الصديق ، وهو شيخ أزهري ، أنه اتهم بالعمل ضدّ الإنكليز في مصر فحوكم غيابياً وحكم عليه بالإعدام ، ففرَّ وجاء إلى جنيف ، وقاسى مرارة العيش ولكنه لم ينس واجبه نحو بلاده بل انصرف إلى تعلم الإفرنسية حتى أتقنها ، وتزوج من سيدة سويسرية وأصدر هذه الجريدة ، فلما استقلت مصر رجع إلى بلده هو وأسرته ومات فيها رحمه الله . وكم في هذا العالم من جنود مجهولين عاشوا مخلصين لبلادهم وماتوا مخلصين ولم يعلم بهم إلا القليل من الناس .

والوحدة في وجهة النظر التي عليها العالم الإسلامي اليوم تدخل في نطاق العامل الأدبي وتدل على أنه سيكون لهذه الإرادة المدروسة ردة فعل ذات تأثير على صلات المسلمين بغيرهم من الأقوام التي تسمى بالإمبريالية ، وهي الدول الكبيرة ، ولما كانت هذه الدول لاتتفق فيا بينها كان باستطاعة الكتلة الإسلامية أن تؤثر تأثيراً عظيماً على كل واحدة من هذه الدول على حدة ، لأن للعامل الأدبي تأثيراً في استمالة الشعوب وبعث الثقة في نفوس أهلها .

وإذا لم يكن المسلمون والجماعات الإسلامية متعارفين فيا بينهم قبل بضع سنوات فإن الحال لم تعد كذلك اليوم ، بل قد تعارف المسلمون والجماعات الإسلامية بفضل الجرائد المحلية والحج والاتصالات التي حدثت بالحرب ، وبهذه الوسائل اطلع البعض على أوضاع وأحوال البعض الآخر ، فتغيرت الآراء عما كانت عليه من قبل . وإني ألفت أنظار الكتاب والخطباء إلى هذه الحقيقة لكي يأخذوها بعين الاعتبار في تصرفاتهم .

أما العوامل السياسية والدبلوماسية فإن تأثيرها مباشر وسريع ، ويعرفها كل الناس حين حدوثها ولا يحتاجون في معرفتها إلى من يكشفها لهم ، ويكفي المرء الباحث المثقف أن ينظر إلى خريطة العالم ويرى أماكن التجمعات الإسلامية الكبيرة ، ثم ليدرس حالة أهلها والمكانة التي يحتلونها في مجموعة السكان الذين هم جزء لايتجزأ منهم ، ثم لينظر إلى معاملة الحكومات إياهم والدور الذي يستطيعون أن يقوموا به في بعض الحالات ليدرك ماذا أردت أن أقول .

وزيادة في التفصيل أقول : إنه يوجد في أوربا كما هي الحال في آسيا نقاط حساسة ومراكز عمل سياسي ودبلوماسي ، ويا لتعاسة من لا يراها أو يستهين بها مدفوعاً بغروره أو طموحاته ، ويجب أن نذكر دوماً حكاية لافونتين التي تقول : إن المرء بحاجة دوماً إلى من هو أصغر منه ، والمسلمون متمركزون في هذه النقط

الحساسة من الأرض ، ولذا فإن لهم دوراً عظيماً في سبيل السلام . ويرى الذين ينظرون إلى البعيد أن المسلمين يستطيعون ، بسبب حيادهم أو بسبب وضعهم ، التدخل في أية رقعة من الأرض لإيقاف كل رغبة بالغزو تبدو من قبل الطامعين . وهذا قد يمكن أن يحدث بعد قليل .

إن الإسلام الذي يود أن يحل التفاهم بين كل الناس سيخرج ، بنتيجة تدخله لمنع الاعتداء عظيماً ، وسيحتل فوراً المكان الذي ما كان يجب أن يضيعه قط ، لو فهم سلاطين استانبول الخلفاء دورهم الحقيقي وقاموا بواجباتهم .

يتبين مما قلته أنه ليس من الضروري أن يكون المرء متمتعاً دوماً بقوات كبيرة أو أسلحة حديثة ليحتل مكاناً رفيعاً بل تكفيه الدبلوماسية لتقوم مقام الأعمال الحربية ، ولكن لا دبلوماسية الأماكن العامة التي تساير كل الحساسيات .

وسياسة حكيمة وثاقبة مثل هذه تتطلب معرفة عميقة بكثير من الأمور التي تهم مختلف الأقوام كما تتطلب بقاء المرء على اتصال مستمر بهذه الأقوام . والسؤال هو : هل في العالم الإسلامي اليوم رجال قادرون على تسيير كل أصحاب النيات الحسنة وكل الجماعات الوجهة اللازمة ؟ وللجواب على هذا السؤال نقول : من المعلوم أنه يوجد ، في الوقت الحاضر ، لجنة تنفيذية إسلامية في القدس تتألف من شخصيات منتخبة بعناية وقادرة على أن تتولى قيادة المسلمين في وجهة جديدة ، ولكني أعتقد أن قيام هذه الشخصيات بعيدة عن مركز العمل العالمي لا يساعدهم على القيام بالعمل المطلوب على الوجه الأتم ، وليسوا مهيئين لهذا الدور الخاص الذي نرمي إليه . ولذا فإني أرى أن يعهد بهذا الدور ، إلى الأشخاص الموجودين حالاً في جنيف ، وهم شخصيات ممتازة ومعروفون من كل العالم الإسلامي . وقد أثبتوا جدارتهم خلال ١٤ سنة على أحسن وجه . فهؤلاء يمكن بل يجب أن يكونوا

منتدبين من قبل اللجنة التنفيذية بصفة وزراء خارجية للعالم الإسلامي كله ليقوموا بدورهم السلمي ، وسيكون لأعمال هذا الوفد نتيجة حتمية وسريعة في وضع حد للظلم ولسوء المعاملة اللذين يعاني منهما كل العالم الإسلامي ، ولإعادة النظر في بعض الأمور التي اتخذتها بعض الشعوب القوية للتسلط على الضعفاء مثل الانتداب رقم أ . وتستطيع هذه الهيئة الجديدة أن تطالب بكل ماذكر من غير أن تخشى الرفض . وإذا دعمت ، في الوقت ذاته ، دولة أو دول قوية راغبة في السلام وميالة إلى تحقيقه ، الإسلام في موقفه فإنها تقدم أعظم خدمة في سبيل السلام .

أما أنا ، فعلى اعتبار أني إفرنسي ، أتمنى ، كما قلت مراراً ، على فرنسا ، التي كانت محبوبة فيما مضى ، أن تعود لتكون صديقة المسلمين وحليفتهم . فإذا بلغنا هذه النتيجة نكون قد لقينا نعم الجزاء ونزعنا من أنفسنا كل خوف . فهل تفهم باريس ماأقول ؟

وإليكم المقالة الثانية التي نشرت في ٨ يونيو ١٩٣٣ م تحت عنوان : (العرب والبحر الأبيض المتوسط) :

إذا كان هناك مبدأ معترف به عالمياً فهو مبدأ حرية البحار ، ولذا قد يعجب المرء حينما يرى دولة شاطئية تصرح بلا مواربة بأن أحد البحار هو بحرها وأنها تنوي التسلط عليه . وهذا ماحدث بشأن البحر الأبيض المتوسط إذ أعلنت إيطاليا بلسان موسوليني أنه بحرها . ومن الجدير بنا ألاّ ننسى هذا القول الذي يشير إلى نقطة من برنامج وضعه موسوليني ، ويود تحقيقه متى حانت الساعة المواتية . وللوصول إلى هذه النتيجة يبدو أنه يرى كل الاتفاقات ، حتى الشاذة منها ، مقبولة لديه ، ولو أدت إلى نتائج خطيرة في المستقبل .

أما إنكلترا فإنها في مأمن من هذا الخطر بفضل ماتسيطر عليه من مراكز

استراتيجية في جبل طارق ومالطة وقبرص ، وبفضل أسطولها القوي ، وبالتالي فإن اتصالها بالهند مضمون ، وأما فرنسا ؟

إن بلادنا بحاجة أن يبقى البحر الأبيض المتوسط حراً لكل الأقوام التي هي على شواطئه وألاّ يتعرض لأي تهديد ، ولبلادنا مصالح حيوية في بقاء هذا البحر حراً ولا تسمح بانتقاصها ، ففي الشرق ، حتى مع توقيع معاهدة صداقة مع سورية ، التي أصبحت مستقلة ، سنحتفظ بقاعدة بحرية فيها ، وسيكون لنا وضع سياسي واقتصادي وأدبي ممتاز ، ومراقبة هذه المناطق مراقبة مستمرة ودقيقة أمر لازم لاسيما خط أنابيب نفط العراق . يضاف إلى ذلك مالنا من صلات وثيقة بمركز الإسلام الذي تهمنا المحافظة عليه بسبب ملايين المسلمين الموجودين في مستعمراتنا والبلاد المحمية ، فانتقاص قوتنا على البحر تكون له ردة فعل خطيرة حتى على السودان . وأما بشأن الشمال الإفريقي ، فيجب أن نضمن الاتصال به على الدوام .

فعلى فرنسا بعد أن علمت بنيّة أعدائها المنافسين أن تعمل كل ماتستطيع للقضاء على كل منافسة ، وكل المناورات الرامية إلى إضعاف قوتنا ، وبكلمة واحدة نقول : عليها أن تضع كل الإمكانات في يديها . فهل هي فاعلة ؟

إنه لا يكفي أن يتمتع قوم ما بقواعد محصنة تحصيناً جيداً ، وأن يكون لهم قوة بحرية وبرية[1] قوية ، وأن يكونوا مستعدين لصدّ كل اعتداء ، بل لا بد لهم ، لاعتبارات كثيرة ، من أن يعتمدوا على دعم حقيقي ، مادي وأدبي ، من قبل أهل البلاد ، وهو شرط حيوي وإلا كانت أعمالهم مؤقتة وليس لها عواقب . فعلى مثل هذا القوم أن تكون له صلات وثيقة ومخلصة بأهل البلاد[2] ، وأن يعمل كل

(١) لم يذكر القوة الجوية لأنها لم تكن ذات بال في تلك الأيام .

(٢) يتكلم المؤلف هنا بعقلية ذاك الزمان وعلى اعتبار ماهو كائن من استعمار ، وفي هذا حث لبني قومه لكي يحسنوا معاملتهم مع أهل المستعمرات .

ما وسعه ليجلب لهم السعادة والأمن ، وألاّ يجرح معتقداتهم ولا يغتصب أملاكهم . فهل تَصَرَّفنـا مع السوريين ، من جهـة ، ومع التونسيين والجزائريين والمغـاربـة ، من جهة ثانية ، يتماشى مع هذه المبادئ بصورة تامة ؟ وهل وزراؤنا في الخارجيـة وفي المستعمرات وفي الحربية يتبعون ، كل فيما يخصه ، من إدارات ، هـذه المبـادئ بـدقـة ؟ وهل يعملون على أن يتبع موظفو وزاراتهم ، من مـدنيين وعسكريين ، هذه المبادئ في البلاد التي يرسلون إليها ؟

إن الحـوادث المـؤلمـة التي تتعـاقب بسرعـة مـذهلـة ، في الشمال الإفريقي ، بالإضافة إلى تأخير توقيع الاتفاقية مع سورية ، كل أولئك تدل على عكس مـا هو مطلوب أن يفعل . فهل الشيطان طمس على أذهان قـادتنـا أو أنهم محصورون في نطاق سيـاسـة حزبيـة لا تسمح لهم أن يفكروا بغيرهـا ؟ أو هل يتركون مبـادرة تسيير الأمور إلى مديري المصالح الذين يسيرون باندفاعاتهم الشخصية تحت تـأثير عقائدهم الدينية أو السياسية ومنفعتهم الشخصية أيضاً ؟ مما لا يشك فيـه المطلعون على خفايـا الأمور هو أن الشق الثـاني هو الـذي ينطبق عليهم ، وعنـدنـا الأدلـة الواقعية لإثبات ذلك .

لقد أحدثنـا في الشمال الإفريقي كلـه وفي الشرق نقمـة عـامـة سوف تـأتي،في حالة حرب،بنتائج مزعجة وخطرة جداً علينا لأنهـا سوف تشل حركتنـا . علينـا أن نصرح بهذا علناً وأن نقوله بصوت عال بلا خوف أن نغضب أحداً ، وعلينـا أن نغير سياستنا بسرعة ومن غير ضياع دقيقة واحـدة قبل فوات الوقت ، وإن اتخـاذ بعض التـدابير لإصلاح مـا فسـد سوف يكون لهـا نتـائج طيبـة ، وستطيب قلوب الذين نحكمهم والذين لا يدرون سبباً لسوء إدارتنا .

لقد سبق لي أن شرحت كل هذه الأمور لأحد رجال الدولة العظـام وأريتـه الخطر المتوقع ، فأدرك الحقيقة ، ولكن يبدو أنه لم يكن يملـك أيـة وسيلـة للعمل

لأنه كان مقيداً بالحزبية وببعض أصوات برلمانية يملكها الوزير الفلاني أو الوزير الفلاني وهو محتاج إلى دعمهم ، ولـذا فـإنـه لا يستطيع أن يحرك مـديراً مسيئـاً من مكانه ولو كان تحريكـه إلى منصب أرفع ، لأن وجود هـذا المـدير في هـذا المنصب هو ضمان لسياسة معينة .

ويؤسفني أن أقول إني خرجت من هذا الاجتماع بألم شديـد ، ولمـا لم يكن لي من هـدف في كل حيـاتي إلاّ فرنسـا قبـل كل شيء ، ولـذلـك فـإني لاأستطيـع أن أتنازل عن هذا الواجب الرئيسي ، ولذا فإني أبعث بهـذه الصيحـة ، صيحـة الخطر وأقول :

إن الغرب وهم أهل البلاد الأصليون في الشرق وفي إفريقيـا والـذين نزعجهم أكثر فأكثر يوماً بعد يوم لمجرد الرغبة بالإزعاج هم أسياد الساعة .



إن هذه اللمحة التي عرضنـاهـا على القراء تمكنهم من فهم مـا نريـد قولـه على الصفحات التالية على وجـه أتم ، وهي أنـه في كل العـالم حركات تظهر من غير أن يكون بينهـا صلات محـددة وكلهـا تعرب عن شعور أخـذ يظهر في كل مكان . إن كل تجمـع إسـلامي يتحرك بمفرده في الـوقت الحـاضر ، ولكن يجب أن نتـوقـع أن تنتهي هذه الأعمـال الإفراديـة المؤسفـة إلى تفـاهم تـام بين الجميع ، فهنـاك ضرورة تدعو المسلمين إلى الاتحاد لكي يدافعوا عن عقيدتهم ، ولن يكون ، حينـذاك ، أهل الهند مثلاً بعيدين عن إخوانهم في الدين من أهل البحر الأبيض المتوسط .

يستحسن ، إذن ، بانتظار انتخاب الخليفة الـذي يجب أن يسير بتوجيهـات جموع المؤمنين ، أن تؤكد المؤتمرات القادمة على الفكرة المتعلقة بالدفاع عن الـدين الإسلامي وعن حقوق كل المسلمين ، وأن يعلن هـذا القرار على جميـع الأمم . لقـد اتبعت هذه الطريقة جزئيـاً في مؤتمر سنـة ١٩٣١ م ومؤتمر ١٩٣٣ م الـذي عقـد في

القدس وحضره مندوبون عن ٢٢ بلداً هي : الجزائر ، القفقاس ، سيلان ، الصين ، مصر ، تركستان الصينية ، الحجاز ، الهند ، العراق ، جاوا ، لبنان ، سورية ، شرق الأردن ، ليبيا ، تونس ، تركيا ، اليمن ، يوغوسلافيا ، المغرب ، نيجيريا ، فلسطين ، إيران ، روسيا[1] ، وكانت المقررات على جانب من الأهمية وهي :

- تمتين فكرة التعاون والمساعدة الأخوية بين كل المسلمين مهما كان عرقهم ومذهبهم .
- حماية المصالح الإسلامية والتأكيد على سلامة الأرض المقدسة ضدّ كل المساعي الرامية إلى السيطرة الأجنبية عليها .
- حماية المسلمين من نشاط المبشرين المسيحيين .
- العمل على إنشاء جامعات ومدارس علوم لكي يغدو التعليم الإسلامي موحداً ، وتعليم النشء اللغة العربية . وفي المرحلة الأولى تنشأ جامعة في القدس تكون لغتها العربية ، لغة القرآن .
- تنتخب لجنة تنفيذية قوامها ٢٥ عضواً تمثل أكبر عدد ممكن من الشعوب[2] .

يبدو من هذه المقررات بشكل واضح العزم على تحريك الجمود السابق ، ولكن ينقص هذا البرنامج شيء وهو اطلاع الدول الكبيرة عليه ، فإذا كانت الدول الكبيرة أحيطت به علماً فإن أحداً من رجالها لم يعلم عنه شيئاً والذين علموا

---

(١) قال المؤلف : إن عدد الذين حضروا المؤتمر كانوا ٢٢ وذكر ٢٣ ولست أدري أين الغلط .

(٢) كنت دعيت إلى هذا المؤتمر ولكني لم أستطع تلبية الدعوة ، وذهبت بعد ذلك إلى القدس ، وقابلت سماحة الحاج أمين الحسيني فأعطاني كراريس تحوي مجموعة المقررات ، وطلب إلي إبداء رأيي بها فتلوتها بإنعام نظر ، وقدمت إليه تقريراً مختصراً قلت فيه : أن ماجاء في هذه المقررات هو خير ما يمكن أن يعمل ، وإذا كان ينقصها شيء فهو التطبيق ، ولكنها كانت حبراً على ورق .

به لم يعيروه أذناً صاغية [1] ، كما كان شأنهم مع مقررات مؤتمر سنة ١٩٣١ م ، الذي أقرَّ وأصرَّ على أمور معينة منها قضية ملكية الخط الحديدي الحجازي وقضية الأوقاف .

ولوضع حد لسوء نية الدول الكبيرة المسيطرة ، أرى أن يقوم المؤتمرون أو بالأحرى اللجنة التنفيذية بواسطة ممثلها في جنيف ، أن تلجأ إلى القوة التي يمتلكها الإسلام في المراكز الحساسة ، التي تحدثنا عنها ، والتي يستطيع المسلمون بكلمة واحدة أن يجعلوها مراكز خطر على الدول التي تود أن تستمر بصم أذنيها عن سماع الحق . وعلى ممثل اللجنة التنفيذية ولنقل إنه هو الوفد الإسلامي ـ العربي الموجود في جنيف ، والذي هو وزير خارجية فعلي لكل الدول الإسلامية ، أقول على هذا الوفد أن يراقب الحوادث العالمية ويسجل لديه المراكز الإسلامية التي يمكن الاعتماد عليها للقيام بأعمال إيجابية عند الضرورة ، ويجب أيضاً ، ومن غير تأخير ، إصدار الصحيفة الأسبوعية ، التي سبق لي أن اقترحت إصدارها ، على أن تكون سياسية ، اقتصادية ، استراتيجية وأدبية ، وأن تصدر باللغتين العربية والإفرنسية ، وتعلن عن المقررات التي يتخذها المسلمون ، وفي الوقت ذاته ترد على الحملات المضللة التي يتعرض لها الإسلام . وأقدر أن نفقات هذه الصحيفة لمدة سنتين لا تزيد على ٧٠٠ ألف فرنك . فهل يصعب على المسلمين جمع هذا المبلغ ؟

حينما يود المرء الحصول على نتائج إيجابية يجب ألاّ يقنع باتخاذ القرارات وإلقاء الخطب ، بل عليه أن يفكر بالوسائل التي يستطيع بها أن يفرض أقواله . إن العالم الإسلامي يمتلك سلاحاً قوياً فعليه أن يستعمله . إن ما أطلبه أو أدعو إليه ليس ثورة ولا هو بالشيء الكثير . لقد قلت وأثبت أن الإسلام يستطيع أن

---

(١) لماذا نطلب من الأجانب والأغراب أن يهتموا بقراراتنا أو يعلموا بها ، إذا كنا نحن نقرر في قاعة الاجتماع وننسى ما قررنا متى خرجنا من القاعة ؟

يتدخل لإيقاف أي خصام عالمي ، فعلى المسلمين أن يعرفوا قوتهم وأن يستعملوها لخدمة السلام كما كانوا دائماً أمة سلم

ثم هناك شيء آخر للنهوض بالبلاد العربية وهو إنشاء مصرف برأس مال ضخم وقبل الإقدام على أي عمل أرجو من جميع الدول العربية أن تستشير الأمير شكيب أرسلان بهذا الصدد لتتجنب وسطاء السوء الذين يعرضون كل عمل للخطر .

أما قضية الخلافة التي منع بحثها في المؤتمر الأخير[١] تحت طائلة منع المؤتمر من الانعقاد قد بحثت في باريس هذا الصيف ، إذ نشرت صحيفة (لوماتن) في العمود الأول من الصفحة الأولى في عددها الصادر في ٢٤ آغسطس ١٩٣٣ م ، مقالاً مسهباً . ونحن لانشك أن الصحيفة لم تقدم على نشره إلا بإذن من الحكومة وإليكم المقال :

منذ زوال الملكية العثمانية والمسلمون ينتظرون خليفة



إن سلطان المغرب يتمتع بالشروط اللازمة لتولي السيادة الروحية حينما ألغى الأتراك سنة ١٩٢٣ م الملكية تنازلوا أيضاً عن سلطتهم الروحية على المسلمين ، تلك السلطة التي جاءتهم على يدي **الفاتح العظيم السلطان سليم الأول** إذ بعد أن أخضع مصر لإرادته ، سنة ١٥١٧ م ، استولى أيضاً على السلطة الروحية ، ثم أورثها خلفاءه من بعده الذين بقوا متمتعين بها حتى نهاية الحرب العالمية الأولى .

كان الخلفاء قبل السلطان سليم كلهم من العرب ، فأصبحت بعده وقفاً على الأتراك ، وبزوال سلطتهم قطع رأس الإسلام[٢] وحرم المسلمون من رئيس أعلى .

(١) لست أدري أي مؤتمر يعني ومن الذي منع بحث قضية الخلافة .

(٢) هذه هي الترجمة الحرفية للجملة التي استعملها كاتب المقال .

ولا يمكن الاستمرار بهذا الوضع من غير أن يضر بأتباع محمد ، ومن غير أن تقوم في وجه فرنسا ووجه العالم الإسلامي صعوبات ، لأن خليفة النبي يجب أن يكون الناطق الأعلى والمنفذ للإرادات المقدسة ، وعلى اعتبار أنه أمير المؤمنين ، فمن واجباته المحافظة على مبادئ الإسلام وعلى الدين الإسلامي سالماً في شكله الأول .

إن عدم وجود خليفة قد يؤدي إلى اختلافات داخلية تنتهي بالفوضى الأدبية التي تقود إلى الثورات الروحية ، وإلى التنافس الديني وإلى الانشقاقات المحلية .

وها نحن نشاهد ذلك في أماكن متعددة ، ففي فاس والمناستير ، أي في المغرب وتونس يقوم مشاغبون على طريقة (الدستور)[1] ويتخذون الدين شعاراً للدعاية السياسية . وهم يستشهدون بالنصوص الدينية أو يحرفونها حسب حاجاتهم وغاياتهم . والاختلاف في الرأي يرافقه الانقسام .

وفي الوقت الذي نرى الأتراك الكماليين ، الذين فرض عليهم الزواج من واحدة فقط ومنعوا من ارتداء الطربوش ، يستمرون بالمطالبة بالرجوع إلى الإسلام الصحيح وإلى المذهب الحنفي ، نرى حزب الشباب التونسي يعتبر مارقاً من الدين كلاً من المرأة التي تخرج سافرة أو تلبس اللباس الأوربي والشخص الذي يتجنس بالجنسية الإفرنسية ويعلن صراحة استنكاره لتعدد الزوجات .

وبالتالي ، فإنه منذ زوال الملكية العثمانية أصبحت الخلافة التي كانت تنتقل بالوراثة بلا وارث . وكانت هذه المرتبة الدينية في بادئ الأمر انتخابية ، ثم في سنة ٦٦١ م أصبحت إرثية مطلقة ، فلماذا لا تعاد اليوم على أسس ديمقراطية ؟

---

(١) يقصد بالدستور هنا حزب الدستور الجديد الذي أسسه الحبيب بورقيبة وإخوانه من الشباب ، وقد سمي بالدستور الجديد لأنه كان يوجد حزب بهذا الاسم ويضم شخصيات محترمة وظل هذا الحزب قائماً حتى بعد تأسيس حزب بورقيبة ولكنه كان اسماً بلا عمل .

لم يكن للخلفاء الأوائل ، الذين رفعهم أبناء دينهم إلى أعلى مرتبة روحية ، من سلطة إلاّ قراءة القرآن أو التقليد[1] ، فكانوا أشبه ما يكون بأحبار اليهود أو حكام روما القديمة الشعبيين .

كان الأمر كذلك يوم اندفع الأمويون بروح قبلية وصادروا الخلافة لحسابهم وجعلوها إرثية ، ثم انتزعتها منهم القبيلة العباسية[2] وانتهى أمرها أن وقعت في أيدي المماليك ملوك مصر إلى أن انتزعها منهم السلطان سليم ونقلها إلى استانبول .

في الأصل كان الشرط الأساسي لتولي الخلافة أن يكون الخليفة المنتخب من قبيلة قريش ، قبيلة النبي ﷺ ، وسلطان المغرب اليوم يتمتع بهذا الشرط بالإضافة إلى أنه ابن بنت النبي ﷺ . فإذا طالب جلالته بالخلافة الروحية ، وهو ملك شعب شديد التمسك بدينه ، فإن الأكثرية من شيوخ المسلمين ومن القضاة والمفتين سوف ينتخبونه من غير شك . وحينذاك ينال العرب الشرف والفخر بأن يروا واحداً منهم على رأس العالم الإسلامي .

وحينذاك يتحقق وعد كمال باشا الذي تعهد بأن يقدم سيف محمد وعلمه المقدس ولحيته وكل متعلقات السيادة الدينية للخليفة الجديد المنبثق عن مؤتمر إسلامي عام[3] .

---

(١) لعله يقصد بالتقليد : الحديث ، وأما حصر عمل الخلفاء الأوائل بقراءة القرآن وغيره يدل على جهل كاتب المقال بالإسلام وتاريخه ، وقد رأيت من سخافات الأوربيين ، حتى في الجامعات ، العجب العجاب .

(٢) لا يعرف هذا المتنطع الذي يريد أن ينتخب خليفة للمسلمين هل العباسيون أسرة أو قبيلة .

(٣) من آثار النبي ﷺ سيفه وجبته ، وهما موجودان في المتحف في استانبول ، وكان الخليفة بعد أن يتولى منصب الخلافة بالإرث يذهب إلى مقام الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري ، وهناك يقلده شيخ الإسلام السيف ويلبسه الجبة تبركاً ، وأما اللحية التي ذكرها كاتب المقال فهي في الحقيقة شعرة واحدة من لحيته الشريفة وهي أيضاً محفوظة بعناية داخل قنينة من زجاج وملفوفة بالقطيفة ، وكان العثمانيون يخرجونها للتبرك بها في مواسم معينة .

فإذا تمّ هذا فسوف يقدم قصر سلاطين استانبول السحري ، أي قصر استانبول القديم الذي تنعكس صورة جدرانه الداكنة وحدائقه الصامتة على صفحة مياه البوسفور ذات اللون الأخضر ، نقول سوف يقدم هذا القصر إلى أمير المؤمنين أمانته القديمة التي هي حصيلة انتصار السلطان سليم ، أي الخلافة مع مقدسات النبي التي هي عنوان وحدة العالم الإسلامي وعنوان أخوته ، اللتين انبعثتا من جديد .

روبير بوس

عضو بلدية باريس

وفي ٢٩ آغسطس سلمتْ جريدة لوماتن الجواب التالي بعنوان : (الخليفة عند المسلمين) قلت : لقد تحدث السيد بوس في المقال الذي نشره في جريدة لوماتن بتاريخ ٢٤ آغسطس ١٩٣٣ م عن قضية الخلافة وختم مقاله بقوله :

إن سلطان المغرب يتمتع بالشروط اللازمة للحصول على هذا المنصب ، ويرى أنه لو رشح نفسه لانتخب بالإجماع .

ويؤسفني أن أقول : إن السيد بوس لم يدرس عن قرب الدين الإسلامي وتبنى فكرة أوحت بها إلى وزارة الخارجية ، منذ بضع سنوات ، شخصية ذات شأن . وعلى الرغم من أنني أعرف هذه القضية جيداً فلم أشأ أن أردَّ عليه من عند نفسي ، بل فضلت أن أستشير شخصية إسلامية وعربية معروفة بهذا الشأن فكان جوابها كما يلي :

إن سلطان المغرب لا يمكن أن يكون قط خليفة للمسلمين لسبب واحد وهو أنه تحت حكم دولة أجنبية غير مسلمة ، والشرط الرئيسي الذي يجب أن يتمتع به الخليفة هو أن يكون مستقلاً استقلالاً تاماً ، فإذا فقد هذا الشرط فقد صلاحيته للخلافة ، وسلطان المغرب ليس مستقلاً وليس له من السلطة إلاّ الاسم .

لقد ظن ملك مصر فؤاد الأول أنه يستطيع أن يكون خليفة ، ولكنـه لم ينل هذا الشرف على الرغم من إجماع المؤتمر الإسلامي القاهري ، منذ خمس سنوات على ذلك لو تمتع بالشرط اللازم ، والسبب الذي حـال دون الملـك فؤاد ودون الخلافـة هو كون مصر تحت سلطة إنكليزية وأن ملكها ليس حراً بتصرفـاتـه ، ففي اليوم الذي يغـادر فيـه الإنكليز مصر ويغـدو الملـك فؤاد حراً أو يستطيع أن يكون لـه جيش وأسطول بحري وغير ذلك يمكن ، حينذاك ، انتخابه خليفة .

وفي اليوم الـذي تغـادر فيـه فرنسـا المغرب ، وتترك للسلطـان الحريـة بـأن تكون له قوة عسكرية إسلامية وتشريع إسلامي خالص ، يمكن لسلطـان المغرب أن ينتخب خليفة ، ويكون لـه امتيـاز على غيره كونـه قريشيـاً ، أي من قبيلـة النبي ﷺ .

وخلاصة القول : إن ملكاً مسلمـاً تحت حمـايـة دولـة مسيحيـة أو غير مسلمـة لا يمكن أن يكـون خليفـة ، وأمـا فيما يتعلـق بملـك المغرب فـإن مسلمي بـلاده لا يقدرون أن يعتبروه خليفة حتى ولو سمي خليفة . أما إذا كان المغاربـة متعلقين به الآن فليس ذلك لاعتقادهم أنه ملـك شرعي بل لأنـه رمز استقلالهم الوطني وهو البقية الباقية من سلطتهم التي يأملون الحصول عليها في يوم من الأيام .

ثم هنـاك مبـدأ في الإسلام يجب ألاّ يتغـاضى عنـه ، وهو أن سلطـان المغرب وكل ملـك مسلم لا ينظر إلى شخصـه ولا لإرادتـه الخـاصـة ، كما يظن الأوربيـون الذين لم يفهموا شيئاً من الإسلام ، بل قوة الملـك مستمـدة من شعبـه وهو لا شيء بلا شعبه . ومثال ذلك الاتفاقية التي وقعها السلطان عبـد الحفيـظ سنـة ١٩١٠ م مع فرنسا واعترف بها بحمايـة فرنسـا على بلاد المغرب ، هي اتفـاقيـة بـاطلـة لأنها كانت عملاً شخصياً ولم يستشر السلطان أهل الحل والعقد بشأنها . فالسلطان ليس إذن حر التصرف حتى ولو كان مستقلاً ، بـل عليـه أن يرجـع إلى شعبـه في تقرير

الأمور العامة ، فليس هناك نظام في العالم أكثر ديمقراطية وأكثر دستورية من الإسلام .

إن الأوربيين الذين لا يفهمون شيئاً من العقلية الإسلامية ولا من الدين الإسلامي يظنون أنهم إذا استولوا على الملوك يستطيعون ، عن طريقهم ، أن يستولوا على شعوبهم ، وأن الإنكليز الذين هم أعلم الشعوب الأوربية بالأمور الإسلامية قد ارتكبوا الخطأ ذاته إذ إنهم فككوا الإمبراطورية العثمانية واستولوا على استانبول وأهانوا الإسلام ، وأحلوا اليونان أزمير وآسيا الصغرى وظنوا أنهم يستطيعون إخضاع الأتراك إلى مشيئتهم بهذه الأعمال وبإجبار الخليفة وحيد الدين،محمد السادس،على توقيع وثيقة استسلام ولكنهم كانوا مخطئين ، إذ فقد السلطان شرعيته وسلطته وقام مصطفى كمال يحرض الناس على القتال باسم الإسلام .

فالخليفة ، إذن ، يحتفظ بمركزه وسلطته مادام قادراً على الدفاع عن الإسلام ، فإذا عجز عن ذلك فقد سلطته ، ومن الأولى أن يفقد الملك سلطته إذا كان مدعوماً بحراب دولة مسيحية .

وبالتالي ، فإن كل ملوك المسلمين ، والخليفة الروحي الأعلى للمسلمين ، بصورة خاصة ، لا يستطيعون أن يحتفظوا بسلطتهم الشرعية إلا بشرط كونهم مستقلين استقلالاً تاماً عن دول مسيحية وقادرين على الدفاع عن المسلمين ضدّ الذين يريدون بهم شراً . هذا هو الشرع الإسلامي .

أرسلت هذا المقال في ٢٩ آغسطس ، كما ذكرت آنفاً ، وفي ٣١ منه أعادت لي جريدة لوماتن مقالي مع كلمة تقول :

نعلمكم بوصول رسالتكم المؤرخة في ٢٩ الجاري مع مقالة شيقة جداً عن قضية

الخلافة . ونحن إذ نشكركم على إرسالكم إلينا هذه الملاحظات القيمة يؤسفنا أن نعتذر عن نشرها بسبب ضيق المكان المخصص لنشر الحوادث المحلية المهمة .

وهكذا ، فإن مكان المحليات الذي كان متسعاً في ٢٤ آغسطس لنشر مقال السيد بوس في العمود الأول والصفحة الأولى من الجريدة ، أصبح في ٢٩ منه ضيقاً لا يتسع لنشر ردي عليه . إن جوابي قد أزعج جماعة وزارتي الخارجية والداخلية فلم تنشره الجريدة ، وهكذا فقد تحقق ما كنت أقوله دوماً بشأن الصحافة التي تأبى نشر تصحيح خطأ أو خبر كاذب .

بعد أن أخذت هذا الجواب كتبت إلى رئيس الوزراء آنذاك ، السيد دالاديه أقول : إن فرنسا ستغدو مضحكة العالم كله ، وهي دولة إسلامية ، إذا كانت ستسمح بنشر مثل هذه الاقتراحات ، وإنه من العيب أن تكون أصول الإسلام مجهولة لدينا .

بعد أيام كتبت جريدة الفتح القاهرية وجريدة تركية من استانبول ومجلة لاناسيون آراب من جنيف يستنكرون مقال السيد بوس وقالت جريدة الفتح : إن ملك المغرب لا يملك شيئاً من الحرية إذ إن موظفاً بسيطاً ، في الإقامة العامة ، له وحده حق فتح الرسائل المرسلة باسم السلطان .

أما السيد بوس الذي أسعدني الحظ بلقائه ، هو ابن أحد سكان المستعمرات القدامى في كوشنشين وهو كثير الأسفار ، وفي آخر رحلة له إلى تركيا قابل عدداً من الشخصيات التركية ، فدسوا إليه بلطف فكرة جعل ملك المغرب خليفة ، إذ من المعلوم أن مصطفى كمال لا يرغب أن ينتخب خليفة من بلاده ولا من بلاد مجاورة لبلاده لأنه يخشى نفوذه ، أما إذا كان في المغرب البعيد عن تركيا ، فإن سلطته تكون معدومة بسبب كونه تحت الحماية ، وقد نبهت السيد بوس إلى هذا الفخ الذي نصبه الأتراك له .

لقد ظن هؤلاء الوزراء والبرلمانيون والموظفون الذين يتشدقون بهذه القضية ، لجهلهم بواقع الأمور ، أنهم قادرون على أن يعملوا على انتخاب خليفة على هواهم ، وأن هذا الخليفة سيكون ألعوبة بين أيديهم فيصبحون هم سادة العالم الإسلامي بلا منازع . ماأكبرها من غلطة !

☆ ☆ ☆

وهناك غلطة ثانية ارتكبت تتعلق بمركز من المراكز الحساسة التي تحدثت عنها . وذلك أني في بداية سنة ١٩٣٣ م ، ذكرت أن هناك بلدين ، لم أذكر اسمهما لأسباب دبلوماسية ، يحتل المسلمون فيهما مراكز حساسة ، وهما محل طمع بعض الدول وأن المسلمين يستطيعون أن يقفوا في وجه هذا التوسع العدواني وقلت إنه للحصول على هذه النتيجة يكفي التفاهم مع المفتين الكبار الذين كنت على صلة بهم ، ثم أن يعمد إلى دعاية لبقة يتولاها هؤلاء المفتون أنفسهم بالاتفاق مع أهل البلاد المطموع بها ، ولما كنت أنا صاحب الفكرة وأنا الذي اتفق مع المفتين ، فقد ذهبت في مارس ١٩٣٣ م إلى وزارة الخارجية وطلبت مقابلة الوزير ، الذي كان آنذاك ، بول بونكور ، ولكني لم أستطع مقابلته على الفور ، بل قابلني معاون مدير الغرفة الدبلوماسية وكان منفتحاً ، فأدرك المناورة التي تمكن فرنسا من أن تكون لها الكلمة العليا في مجال الدبلوماسية ، وتقضي على محاولة تعكير الأمن وتجعلها قابضة من جديد على تسيير دفة الأمور العالمية بدل أن تكون تبعاً لدول أخرى .

وطلبت في مقابل هذه الخطة أن توقع فرنسا معاهدة مع سورية ، على اعتبار أن مثل هذه المعاهدة تقرب فرنسا من قلوب المسلمين ، كما طلبت أن تعمد الحكومة إلى إحداث تعديلات جذرية في سياستها في الشمال الإفريقي ، وأن تقدم الحكومة الأموال اللازمة للدعاية ولكل ما يلزم من تدابير ، وكان هذا من

أسرار الدولة التي يجب أن تبقى محصورة بين وزير الخارجية ورئيس الوزراء بالاتفاق مع رئيس الجمهورية فقط .

طلب إلي معاون مدير الغرفة الدبلوماسية ، الذي قابلته ، أن أعود إليه بعد ثلاثة أيام ، فلما عدت في الموعد المضروب علمت بتعجب وذهول ، أن الوزير أحال كتابي إلى مكاتبه لأخذ رأيهم فيه ، ولما كانت الأخبار السرية كثيراً ماتتسرب إلى الخارج ، فإن السر لم يحفظ ، فكتبت إلى أعلى سلطة في الدولة أشرح لها الأمر وأضفت قائلاً : إن المكاتب في الوزارات إنما جعلت لكي تتلقى الأوامر ، وليس لكي يؤخذ رأيها في مثل هذه القضية المهمة التي هي فوق صلاحياتها .

وفي ٣ مايو كان لي لقاء طويل مع رئيس الوزراء ، فقدمت إليه الأوراق المتعلقة بهذا الأمر ، فتحمس للموضوع ، ورجاني أن أرى فوراً وزير الخارجية بول بونكور ، فكان جوابه أنه لا يرى من المستحسن في الظروف الحاضرة العمل بهذه الاقتراحات .

هذه هي كانت عبارات صاحب المعالي أو بالآحرى عبارات مكتبه . ومقابل ذلك دخلت فرنسا في مباحثات رباعية انتهت بأن أضعنا كثيراً من مكانتنا ومن حريتنا . ولوكان ماحدث وقع في بداية سنة ١٩١٢ م ، يوم كان السيد بوانكاره وزيراً للخارجية وعمل كما عمل الآن بول بونكور لنشبت الحرب آنذاك . لقد ذكرت كل ماجرى في الجزء الأول من كتابي : (الثورة العربية) .

ومهما يكن من أمر فإن ذكر هذا الحادث يعطي فكرة عن قوة المراكز الحساسة التي يجب على المسلمين الإفادة منها بلا تأخير[1] .

☆ ☆ ☆

(١) هذا المقال فيه كثير من الغموض لأسباب كثيرة أولاً : لأن الكاتب اعتذر عن ذكر اسم البلاد =

والحادث الثالث يجعل أعدى أعداء الإسلام والعرب يدركون ضرورة تعديل موقفهم تجاههم ، ونعني بذلك حادث موت الملك فيصل[1] المفاجئ في سويسرا ، إذ لم تذكر أية جريدة إفرنسية تفصيل ماجرى في الشرق من مأتم . وإليكم ما كتبه إلي أحد الشخصيات العربية بهذا الصدد قال :

لست أدري فيما إذا كنت قد اطلعت على ماجرى في الشرق بمناسبة موت الملك فيصل ، فمنذ قرون لم يكرم أحد بعد موته مثل هذا التكريم ، ولم يبك أحد مثلما بكي على الملك فيصل . ولقد أغلقت جميع المدن والأرياف حوانيتها بهذه المناسبة الحزينة ، ورفعت رايات الحزن على جميع المنازل تقريباً ، وأقيمت الصلوات في كل المساجد ، وقرعت أجراس الكنائس أجراس الحزن ، وكان حزن البلاد يفوق الوصف ، وفي كل المدن طافت الشوارع مظاهرات حزينة .

واستقبل الجثمان في حيفا ساعة وصوله أربعون ألف شخص ، وكان ثلاث مئة ألف شخص في بغداد في استقباله جاؤوا من جميع أنحاء البلاد ، وقد خافت الحكومة العراقية الازدحام ففتحت جسور دجلة وقطعت المواصلات ودامت المآتم في بغداد أسبوعاً ، وشارك بهذه المآتم المسيحيون واليهود والمسلمون سواء بسواء .

وفي المناطق المارونية في لبنان ، وفي مدينة زحلة المسيحية ، أقيمت المآتم العظيمة وشارك بها المطارنة والخوارنة بكلمات مؤثرة .

وفي كثير من المدن أطلق اسم فيصل على الشوارع الرئيسية وخرجت الجرائد العربية الناطقة باسم جميع الأحزاب والأديان في إطارات سود خلال أسبوع . كل

= التي اقترح على فرنسا تنفيذ اقتراحه فيها . ثانياً : لم يذكر الاقتراح الذي له كل هذه النتائج السحرية . ثالثاً : لم يذكر الدول الأربع التي جرت بينها المباحثات المذكورة . رابعاً : لقد مضى أكثر من نصف قرن على هذا الحادث ولم يبق في عالم اليوم من هو على علم بما قيل .

(١) الملك فيصل الأول بن الحسين ملك العراق .

هذا يدل على أن الحركة العربية آخذة بالاشتداد يوماً بعد يوم ، فعلى باريس ألا تفرح بموت فيصل .

هذا ما كتبه هذا الصديق العربي ، وإني أرى أن الجملة الأخيرة جملة صادقة ، وهي التي تختصر واقع الحال ، إن الملك فيصل ، بالنسبة إلى العالم العربي ، يمثل المستقبل القريب لنهضة عربية تامة في اتحاد كونفيدرالي ، وحول هذا الملك كان قد تحلق جميع أولئك الذين يأملون أن يروا علم الاستقلال العربي يرفرف من جديد . إن تركيز القوى آخذ بالازدياد يوماً بعد يوم وهو سائر باستمرار . إن هذا المثال درس عبرة للدول الغربية .

☆ ☆ ☆

ولنتحدث الآن عن موضوع آخر وهو موضوع المؤتمر الإسلامي الأوربي :

الذي كان يجب أن ينعقد في آغسطس ١٩٣٣ م في جنيف ، فتأجل إلى سنة ١٩٣٤ م لأسباب ، منها ؛ أن الحالة العامة لم تكن تسمح لكل الناس بالحضور في الوقت المضروب ، ثم لضيق الوقت لاستكمال التحضير له .

لم يعقد المؤتمر في سنة ١٩٣٣ م لأن الحوادث التي حدثت كان يمكن أن تغير القرارات التي ستتخذ والتي يمكن أن تكون ذات بال[(١)] .

وقد سعت وزارة الخارجية أن تتسرب إلى داخل المؤتمر عساها تستطيع أن تسيره على هواها ، وأن تفاجئ المؤتمرين في الاجتماعات الخاصة والمباحثات ، وأنا أعرف القاعة التي أعدت بها هذه المناورة بتأثير من شخصية في الوزارة ، وكاد أحد وجهاء المسلمين أن يقع في الشرك الذي نصبه له ، فلما علم بالأمر انسحب في الوقت المناسب .

---

(١) أعظم الحوادث العالمية التي حدثت سنة ١٩٣٣ م هو مجيء آدولف هتلر إلى الحكم في ألمانيا .

وصل المؤتمر إلى نقطة حاسمة ، وكم كنت أتمنى وأنا الإفرنسي المحب لبلاده ، أن تدرك بلادي نفعها ، ولكن المؤسف هو أني رأيت بعض رؤساء الوزارات الذين فهموا الأمر على وجهه ، وكانوا يودون أن يعملوا باقتراحاتي فغلبت عليهم مصلحة أحزابهم واعتبارات الأغلبية أو غير الأغلبية في البرلمان ، فلم يقدموا على ذلك .

طلبت في ٣ مايو إلى وزير الخارجية أن ينقل دبلوماسياً معادياً للإسلام ، راسخ القدم في الوزارة ، من وظيفته الحاضرة إلى وظيفة أخرى أرفع منها ، فكان جوابه : إني لا أملك ذلك لأني لست السيد هنا . فقلت عينه في أمريكا أو في البلاد الإسكندنافية حيث لا يوجد مسلمون أو يوجد عدد قليل منهم ، فأجابني الجواب ذاته أي إنه ليس سيد أمره في وزارته ، فقلت له : يجب أن تضع مصلحة فرنسا قبل كل اعتبار .

وفي الواقع مع قليل من بعد النظر تغدو بلادنا الجميلة الصديق والحليف للمسلمين . وكم نكون أقوياء لو تحقق ذلك[1] .

---

(١) لما ذهبت إلى فرنسا في مطلع سنة ١٩٣٣ م آتياً من الهند ، حيث طردني الإنكليز منها بسبب نشاطي السياسي والإسلامي ، ورأيت العدد الوفير من المسلمين ، والعرب خاصة ، الموجودين في باريس ، أردت أن أجمعهم على صعيد واحد ، لنكون قوة فاعلة فأسست ما أسميته ، آنذاك ، (الندوة الإسلامية) ، فلاقت هذه الدعوة إقبالاً لأنها كانت استجابة لرغبة كل مسلم ، ولكني لاقيت بعض المضايقات من السلطات ، لاسيا وأن سورية كانت تحت الانتداب الإفرنسي ، وكان الأمير شكيب على علم بما أقوم به فكتب إلي يقترح علي العمل معاً في جنيف ، فرحبت بالفكرة على اعتبار سويسرا مجالاً أوسع للعمل الحر من فرنسا ، وقطعت علاقاتي من فرنسا وذهبت إلى جنيف وأسسنا معاً المؤتمر الإسلامي الأوربي .

لم يكن المؤتمر موجوداً ولا الفكرة ناضجة ، بل كانت من إيحاء بعض أصدقائنا المصريين الأفاضل مثل المرحوم عبد الباقي العمري ، وهو من أحرار المسلمين . وكان قد هجر مصر إثر إعلان الإنكليز حمايتهم على مصر سنة ١٩١٤ م ووقوفهم ضد الدولة العثمانية ، وخلعهم الخديوي عباس حلمي الثاني الذي كان من أنصار الدولة العثمانية ، دولة الخلافة ، وهو تابع لها . هجر المرحوم

= بلاده مع زوجته وأتى إلى سويسرا ، ثم بعد الحرب اختار باريس سكناً له ، لأنه درس الحقوق فيها والشخص الثاني هو المرحوم محمود سالم وهو قاض كبير ترك بلاده أيضاً من جور الإنكليز ، وأتى وسكن باريس لأن زوجته إفرنسية . وكان هذان الفاضلان يهتمان بالشؤون الإسلامية ، ولكنهما لم يعملا عملاً مستقلاً ، اللهم إلاّ محمود سالم فإنه كان أصدر نشرة أو نشرتين بشأن فلسطين .

فور وصولي إلى جنيف أخذت بتنظيم الأمانة العامة للمؤتمر ، فراسلت الصحف الإسلامية في كل العالم واتصلت بكثير من الشخصيات الإسلامية ، وقد استقبلت كل الأوساط الفكرة بالترحاب ، ثم إني قمت برحلة إلى باريس فبرلين ففيينا ثم إلى يوغسلافيا فرومانيا وبلغاريا ، وكانت كلها ما زالت دولاً مستقلة ، ولم تكن تحت الحكم الشيوعي ، واجتمعت بالهيئات الإسلامية أو الشخصيات الإسلامية ، وأكدت على الدعوة لحضور المؤتمر . وكان للمسلمين في أوربا الشرقية هيئات إسلامية معترف بها رسمياً ، وهي التي تشرف على أمور المسلمين في تلك البلاد ، وذلك بموجب معاهدات عقدها العثمانيون مع تلك البلاد يوم انسحبوا منها ، وما زالت هذه الهيئات موجودة إلى اليوم ، ولكنها أصبحت اسماً بلا مسمى إلا في يوغوسلافيا حيث توجد جالية إسلامية يبلغ عدد أفرادها سبعة ملايين نسمة . وكان من المقرر بموجب هذه المعاهدات أن يكون للسلطات الإسلامية من الحقوق مثل ماللبطاركة من الحقوق في البلاد العثمانية .

وقد استجاب لهذه الدعوة بعض الأفاضل من بلاد أوربا الشرقية ، وافتتح المؤتمر واختتم بحفلة غداء ، ولم يزد عدد الحضور على أربعين شخصاً بما فيهم الطلاب المسلمون الذين كانوا يدرسون في سويسرا ، وقد انسحبت أنا من هذا المؤتمر قبل انعقاد جلسته الوحيدة ، لأسباب خاصة ، وانفرط عقده بعد ذلك إذ لم يوجد من يقوم به بعدي لأني كنت أقوم بهذا العمل تطوعاً غير مأجور .

ومن المؤلم أن أقول إنه بعد مؤتمرنا هذا الذي عمل له الأوربيون ألف حساب وحساب ، فكانت نتيجته صفراً ، عقد اليهود مؤتمراً في مدينة بال عاصمة سويسرا حضره خمسة آلاف شخص جاؤوا من جميع أنحاء العالم ، ولا أدري ماذا قرروا ولكني لا أشكّ إلاّ أنها كانت قرارات عقبها تنفيذ وقطف ثمرات . وبهذه المناسبة لابد لي من أن أقول إني زرت فيمن زرت من الشخصيات الإسلامية الخديوي عباس حلمي الثاني ، الذي كان يقيم في باريس ، وهو من الأثرياء الكبار في العالم ، فتبرع للمؤتمر بخمسين جنيهاً ، فقلت له إني لاأستلم مساعدات بل من شاء التبرع فعليه أن يرسل تبرعه إلى أمين الصندوق ، ولكني أرجو سموكم ، على كل حال ، ألاّ ترسلوا هذا المبلغ لأنه لا يليق بسموكم ذلك ، بل أرجوكم أن تحضروا المؤتمر ، ولكنه لم يحضر المؤتمر ولم يرسل شيئاً .

أقول هذا للتاريخ وللاعتبار ، فنحن نهب كالبارود ثم نخمد مثله أيضاً ، ومن كان هذا شأنه لا يمكن أن يأتي بعمل نافع ، لأن الأمور تحتاج إلى متابعة واستمرار عملاً بالقول السائر : كل من سار على الدرب وصل ، وأما الذي يقفز قفزة ثم يجلس فلا يأتي بعمل مفيد .

الفصل الثاني

البلاد الإسلامية

والآن دعونا نقوم بجولة في البلاد الإسلامية أي في الجزء الأكبر من الأرض .

إن البلاد الإسلامية المستقلة هي اليمن ، الحجاز ونجد[1] ، إيران ، أفغانستان وتركيا ، وكذلك ألبانيا ومصر والعراق مع شيء من القيود .

فلنترك تركيا جانباً مؤقتاً ، التي على الرغم من الجهود التي بذلت لإبعاد أهلها عن الإسلام فقد ظلوا مسلمين وفخورين بأن يكونوا على مدى قرون معروفين بالدفاع عن الإسلام . وتركيا اليوم ، في نهضتها السياسية والاقتصادية بحاجة إلى الهدوء ، ولكني على يقين من أنها لن تقصر بواجبها في اليوم الذي يقتضيها مساعدة إخوانها في الدين .

ثم لنبحث وضع البلاد الإسلامية مبتدئين من الأطلسي فنحن نرى المغرب فالجزائر فتونس فطرابلس فبرقة[2] فمصر ففلسطين فالأردن فسورية فالعراق وتحدها إيران ، وتأتي نجد والحجاز في جنوب العراق ، وهذه السلسلة الأولى التي تضم الشعوب العربية والبربرية القاطنة في جنوب وشرق البحر الأبيض المتوسط ويبلغ عددهم ٨٠ ـ ٩٠ مليون نسمة وبلادهم متصلة بعضها بالبعض الآخر . ثم تأتي

---

(١) لست أدري لماذا قال : الحجاز ونجد ، مع أنه كتب كتابه هذا يوم أصبحت كل هذه البلاد وسواها تسمى العربية السعودية .

(٢) يوم كتب كتابه كانت طرابلس منفصلة عن برقة .

سلسلة ثانية من البلاد التي تدعمهم وتقويهم . وهذه السلسلة تبدأ من العراق وتضم ثلاثين مليون من المسلمين يقطنون القفقاس وبلاد الدانوب والفولغا وبحر قزوين وتركستان الروسية ، ثم تأتي أفغانستان والهند وفيهما ٨٠ إلى ١٠٠ مليون نسمة ثلاثون مليون منهم في الشمال . وبعد هذه السلسلة تأتي السلسلة الثالثة وهي التي تضم تركستان الصينية وهي بلاد إسلامية يضاف إليها ١٠٠ مليون مسلم في الصين الغربية خاصة . ويقطن في جنوب القارة الآسيوية ، في جزر (سوند) ٥٥ مليون مسلم وهم يهتمون ، في الوقت الحاضر ، بنشاط بكل القضايا الدينية سواء أكانت في بلادهم أو في غيرها من بلدان العالم . وتشكل هذه الجزر ، التي تبدأ من سنغافورة وتنتهي عند حدود جزر الفيلبين ، نصف دائرة لها أهمية في السياسية العالمية .

ولندع الحديث ، اليوم ، عن جزر فورموزا وغيرها من المجمعات الصغيرة الموجودة في هذه المنطقة ولنتوجه غرباً نحو الخليج الفارسي وفيه عمان وإيران والعراق والأحساء والهفوف[1] ، وعلى شاطئ بحر الهند توجد منطقة حضرموت ، وعلى الجانب الغربي من البحر الأحمر يوجد السودان ومصر والصومال والسودان الإفرنسي وإفريقيا الغربية ، وعلى الجانب الشرقي من البحر الأحمر رأينا اليمن والحجاز ، وإلى الجنوب نجد زنجبار ، وهناك كثير من المسلمين في الحبشة وفي مستعمرة الكاب .

وفي الختام ، لابد لنا من أن نذكر مسلمي أوربا ، فهناك باستثناء مسلمي روسيا يوجد في يوغسلافيا وألبانيا وبلغاريا واليونان ورومانيا وبولونيا وليتوانيا والمجر نحو سبعة ملايين مسلم[2] . ويوجد في الأمريكيات الثلاث : الشمالية

---

(١) هنا أيضاً ذكر هذه المناطق متفرقة ، مع أنها أصبحت تسمى بالسعودية . ولما كنت أترجم نصاً معيناً فإني أترك ماكتب كما هو للتاريخ .

(٢) تركت كل الأرقام على حالها ، وهي أرقام لم تكن صادقة يوم كتب الكتاب ، وهي اليوم أبعد عن الحقيقة من قبل .

والوسطى والجنوبية بضع مئات الآلاف من المسلمين وهم آخذون بالازدياد .

وحاصل القول : إن العالم يقف أمام ٣٧٥ ـ ٤٠٠ مليون مسلم يثقون بأهمية عددهم وبقوتهم . وأذكر هنا كلمة سمعتها من شاب تونسي عمر ٣٣ سنة ، وهو ذكي ونشيط وناشئ في مدارسنا ، وهو يحاكم الأمور محاكمة سليمة ويستنكر نظرية بعض رفاقه الداعية إلى الجمود ويطلب الإصلاح اللازم ، قال : أنا مسلم قبل أن أكون تونسياً ، وهي كلمة بعيدة المدى ، ومعنى ذلك أنه كلما اضطهد الدين غدا عزيزاً مقدساً وأغلى وأعظم من الوطن ذاته . فعلينا أن نفكر تفكيراً سليماً بهذا الأمر . ولندرس حالات بعض هذه البلاد لكي نقوم بدور أولي في هذه المأساة .

☆ ☆ ☆

الهند : تضم ٣٥٢ مليون نسمة منهم ٨٠ ـ ٩٠ مليون مسلم على أقل تقدير ، وهذا العدد يزداد سنوياً بمعدل بضع مئات الآلاف وخاصة في الطبقات الدنيا . وسبب إقبال الناس على اعتناق الإسلام هو كونه دين المساواة ، ولا يوجد فيه طبقات ، مثلما هي الحال في الديانة الهندوكية ، وهذا هو السبب الذي جعل الناس يميلون إليه . أما بشأن الأمور السياسية التي تحرك الهند ، فالمسلمون غير متفقين مع الهنادكة ، لأن المسلمين يطلبون أن يكونوا الأكثرية ، في الدول الاتحادية المستقبلية ، التي هم أكثرية فيها ، وأن يكونوا ممثلين بالثلث في الولايات التي هم أقلية فيها . والهنادكة يعرضون على المسلمين أن يكونوا ممثلين بمعدل الربع في كل الولايات ، ومن هنا كان إخفاق المفاوضات في مؤتمر الطاولة المستديرة في لندن . وهذا الاختلاف في الرأي من حظ الإنكليز ، وهم الذين يقطفون ثماره لصالحهم ، ولكن لعبتهم في الأرجحة لا يمكن أن تدوم إلى ما لا نهاية له .

ولكي يدل المسلمون على رغبتهم في وضع حد لهذا الاختلاف أو لبعضه ، على الأقل ، فإنهم يطلبون إنشاء اتحاد خاص بهم مؤلف من خمس ولايات عددهم فيها

ثلاثون أو أربعون مليون نسمة ، وهذه الولايات هي : البنجاب ، كشمير ، السند ، الحدود الشمالية ، بلوجستان ، وكل هذه الولايات تقع في شمال شبه الجزيرة الهندية ، وتختلف عن غيرها من الولايات التي تتألف منها الهند من حيث الدين والثقافة والتاريخ والتقاليد والحياة الاقتصادية وتشريع الإرث والزواج . وهذه المجموعة العظيمة من المسلمين المشبعين بإرادة قوية ، لابد لهم من أن يبلغوا مرادهم ، على الرغم من مقاومة الإنكليز لهم ، بالإضافة إلى الهنادكة ، ولكن الإنكليز سيجبرون على النزول عند إرادة المسلمين (وهذا ما حدث وأنشئت باكستان) لأن أكثر أنصار الإنكليز الذين يعتمدون عليهم للقضاء على الاضطرابات التي تحدث في الهند هم من المسلمين ، ومع ذلك ، فإن الإنكليز يخافون هذه الدولة الجديدة ويترددون في المساعدة على ظهورها إلى عالم الوجود . أما الهنادكة فقد أغضبهم اقتراح المسلمين جد الغضب لا لأنهم يخشون أن تكون هذه الدولة المسلمة مقدمة لثورة عامة تلهب الهند فقط ، بل لأنهم يخشون أن يستعين المسلمون بإخوانهم في الشمال وفي الشرق ، في بطاح آسيا ، وأن يعملوا معاً لغزو الهند من جديد ، وإذا رفض الإنكليز طلب المسلمين ، فإنهم يخشون أن يحرموا من مساعدتهم في تهدئة الاضطرابات المقبلة ، وحينذاك تتحقق الدولة الإسلامية تلقائياً بدعم ستين مليون مسلم منتشرين في كل أنحاء الهند يساعدهم المنبوذون .

وهذه الأمور التي قد تشكل خطراً جسيماً لإنكلترا ليست بعيدة الحصول ، بل ربما كانت أقرب إلى الواقع مما يتصور . وعلى كل حال فإن مسلمي الهند بما هم عليه من ثقافة وفهم للأمور ومن ماض مجيد ، هم أحرى الناس بأن يتزعموا الحركة الإسلامية ، وهم أهل أن يقودوا هذه الحركة أفضل قيادة لأنهم لم يصابوا بعد ببعض الميكروبات الأوربية ، فما عليهم إلا أن يحزموا أمرهم .

مصر : إن مصر بفضل ملكها الذي يسير بحكمة في نطاق برنامج دقيق ، ستنال استقلالها التام رويداً رويداً . وإن جهوداً جديدة في ساعة حاسمة ستجعل الإنكليز يدركون الخطر الذي يلحق بهم إذا ظلوا متمسكين بوضعهم الحاضر . ووضع مصر دقيق بسبب موقعها الجغرافي بين آسيا وإفريقيا ، وهي إذ تفخر بماضيها المجيد وعلومها القديمة المدهشة وعلمائها الكهنة الذين كانوا على علم أتم وأعمق مما هي عليه علوم الوقت الحاضر ، فإنها لا تزال مستمرة في نهجها العلمي لكي تغدو مركزاً ثقافياً نشطاً تمتد أشعته إلى كل مكان . ولمصر في العالم الإسلامي مكان مرموق بفضل جامعة الأزهر وما أدخل عليها من علوم عصرية ، ويهتم جلالة الملك فؤاد الأول ، حامل مشعل التقدم ، بألاّ يوصم بأنه ملك على بلاد جاهلة أو أنه يود أن يحكم بلاداً متأخرة .

يرى المتحمسون أن مصر تقوم ، في الوقت الحاضر ، بدور ضئيل في الحياة ، بينما كان باستطاعتها أن تتولى قيادة الحركات الإسلامية في أوربا وربما كان في ذلك كل الخير ، ولعل هذا يكون متى حصلت على استقلالها التام .

العراق : هو أيضاً على مفترق طرق ، وقد أبدى حتى قبل حرب ١٩١٤ م تلاحماً شديداً مع البلاد العربية ، كما أبدى روحاً وطنياً واضحاً ونظرة ثاقبة إلى مستقبل البلاد العربية . وقد سررنا لانضمامه إلى عصبة الأمم واعتباره دولة مستقلة . لا شك أن العراق ما زال مرتبطاً مع إنكلترا بمعاهدة قاسية ، ولكن المعاهدة ليست إلا فترة انتقالية ، ونأمل أن تنتهي بسرعة ويحصل العراق على استقلاله التام .

لقد احتل العراق ، هذا الصيف ، مقام الصدارة في الأحداث العالمية بسبب الثورة الآشورية ثم بسبب موت جلالة الملك فيصل .

والقضية الآشورية تحتاج إلى إيضاح لوضع حد للأخبار والتعليقات

المغرضة ، ونقول مغرضة لكي لا نقول كلمة أقسى بحق بعض صحفنا . ومن الجدير بالذكر هو أنه لا يوجد أقليات في العراق بل كل أهل البلاد مواطنون ، وكلهم يتمتع بحقوق وواجبات المواطن ، وكل المواطنين يصلون إلى أعلى مراتب الدولة من أي دين كانوا ، ومثال ذلك نجد في الوقت الحاضر مدير الواردات العامة ومدير الزراعة مسيحيين ، وهناك كثير من الموظفين يدينون بالمسيحية الكاثوليكية ، وهم يعاملون على قدم المساواة مع غيرهم من المواطنين . وإعانات كبيرة تعطى لمدارس جميع الأديان بلا تفريق ، ونضيف إلى كل هذا أن أحداً من المسيحيين في الشرق لم يصب بأذى زمن الحرب بل قد لاقوا العون والمساعدة من مواطنيهم المسلمين الذين تبرعوا لهم بالمسكن والطعام واللباس ، وبفضل هذه المساعدات الإنسانية ما زال للمسيحيين وجود في الشرق .

يوجد الآن في العراق ٤٠ ألف كلداني و ٢٠ ألف أرمني وصابئي ويهودي و ٢٧ ألف آشوري . والآشوريون ليسوا ، في الأصل ، من سكان العراق ، بل لأنهم وقفوا ، أثناء الحرب ، إلى جانب الإنكليز فقد ترك لهم الإنكليز ، بعد الحرب ، سلاحهم وأسكنوهم العراق . وقد أراد هؤلاء الجبليون أن يظلوا مجتمعين في مكان واحد ، وكان من الصعب إجابة هذا الطلب لأن الأرض كانت ملكاً للأكراد ولغيرهم من أهل البلاد ، ولكن الإنكليز لم يبالوا بذلك ، وصادقت عصبة الأمم في قرارها الصادر في ١٤ ديسمبر ١٩٣٢ م على ما فعلت بريطانيا التي تبرعت بأرض لا تملكها للآشوريين كما فعلت في فلسطين . وقد عين العراق خبيراً إنكليزياً هو الميجر تومسن لحل هذه القضية فوصل إلى الموصل في ١ يونيو ١٩٣٣ م ، وسعت الحكومة العراقية وسعها لجمع الآشوريين في مكان واحد . ولكن حدثت صعوبات بسبب قيام مشاغب اسمه مارشيموم عمره ٢٢ سنة ، قام باسم الدين ، وأبى أن يتعاون مع الميجر تومسن وتدعمه جماعات دينية بريطانية ، وطالب باستقلال ذاتي للآشوريين ، وأعد العدة لثورة مسلحة على العراق ، فاستدعي إلى

بغداد واعتقل ، فقام مقامه شخص آخر اسمه ياكو ، وأعلن عصيانه على الدولة فاصطدم بالجيش العراقي في يونيو ، واندحر وفرّ إلى سورية على رأس ١٣٠٠ مسلح ودخلها في ٢٢ يوليو .

وعلى أثر ذلك جرت اتصالات مع المفوضية الإفرنسية[1] في بغداد لتجريد هؤلاء الثوار من السلاح وإبعادهم عن الحدود العراقية ، وذلك بموجب اتفاقيتي حسن الجوار المعقودتين بين سورية والعراق في سنتي ١٩٢٧ و ١٩٣٢ م ، ولكن الحكومة الإفرنسية لم تجب هذا الطلب . وفي ٤ أغسطس طلبت مجموعة من هؤلاء الثوار السماح لهم بالرجوع إلى العراق على أن يسلموا سلاحهم ، فأجابت الحكومة طلبهم ، فلما كانوا أمام جنود عراقيين فتحوا عليهم النار ، فقابلهم العراقيون بالمثل ودحروهم ، وتبرأ الآشوريون الباقون من عمل زملائهم . وفي ١١ أغسطس عاد الهدوء إلى البلاد .

هذا حقيقة ما حدث كما ذكره الميجر تومسن ذاته ، بالإضافة إلى أن سردوبس ، المندوب السامي البريطاني السابق في العراق كتب إلى جريدة التايمس معترفاً بمنتهى خبث الآشوريين ، وبالأعمال القاسية التي ارتكبوها في مناسبات عديدة . فما هو ياترى سبب التزام بعض الجرائد الأوربية للآشوريين ؟ السبب هو الكره المتأصل في نفوس الأوربيين لكل مسلم وعربي ، ثم التعصب الديني المسيحي المقوت ، ثم ردة الفعل التي حدثت في سورية من استقلال العراق . فاتهام المسلمين باضطهاد المسيحيين وقتلهم كانت الغاية منه التدليل على عدم استطاعة السوريين أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم . وكذلك القضاء على كل رغبة بإنصافهم بسبب وجود كثير من المسيحيين في بلادهم ، بحجة أنه إذا استقلت

(١) قبل أن تستقل العراق استقلالاً تاماً لم يكن لها في الخارج ولا كان عندها في الداخل سفراء ، بل كان وزراء مفوضون يمثلون بلادهم .

سورية فسيكون هؤلاء المسيحيون مهددين بالموت ، وبغية أن يظل احتلال سورية من قبل الإفرنسيين مستمراً . إنها أقوال تافهة أحسن حبكها .

مما لا شك فيه أن هذا الحادث المؤسف هو الذي اضطر الملك فيصل إلى مغادرة سويسرا التي كان يتلقى فيها علاجاً دقيقاً وكان بحاجة إلى الراحة ، فكانت هذه المفاجأة المؤلمة سبب موته المفاجئ ، مما لا يزال يبعث الحزن والألم للعراقيين ، ويبعد المسلمين والعرب عن العطف على الأوربيين .

وعلى كل حال ، إذا كان موقفنا تجاه فيصل ، فيما مضى ، قد أحدث بعض الفتور في العلاقات الإفرنسية العراقية ، فإننا نأمل أن نكون مع ابنه وخليفته جلالة الملك غازي الأول على أفضل صلات من المحبة والود ، ولنذكر دوماً الاستقبال الفخم الذي أعدته إنكلترا للملك فيصل حين زارها في صيف ١٩٣٣ م ، إذ رافقت البارجة التي كان يستقلها ١٢٠ بارجة من ميناء أوستند في بلجيكا إلى لندن ، وهو تكريم في محله ، لحاجة إنكلترا إلى مسايرة المسلمين ، لأن كل ما يجري في العراق يعلم به أهل الهند فوراً .

لقد احتج العراق بصورة رسمية وبشدة على سلوك بعض الجرائد الإنكليزية التي وقفت موقفاً معادياً في العراق بسبب حوادث الآشوريين ، فلقنت هذه الجرائد درساً لا ينسى ، وكان من المفروض أن تتلقى بعض جرائدنا مثل هذا الدرس . لقد استعمل العراق حقه في الدفاع عن نفسه وعن كرامته ، وأعلن أنه يأبى أن يعامل معاملة غير لائقة . هذا ، وإن العراق بمركزه الجغرافي قوة يجب أن يحسب حسابها ، فهو همزة الوصل إلى القفقاس وإيران ومتصل بمناطق حساسة .

كثيراً من الأمور التي كانت سبب الخلاف بين العراق وبين السعودية قد زالت بموت الملك فيصل ، ويرجى أن تتألف من هذين البلدين ومن اليمن وحدة كونفدرالية على أن تضم بقية العالم العربي كله بعد ذلك .

فلسطين : إذا كان يوجد في العالم بلد تمثلت فيه سوء نية الدول الكبيرة بصورة واضحة فهو فلسطين ، وقد أشرت إلى هذه الحقيقة في كل كتبي السابقة ، وإن غليان العالم العربي يزداد سنة بعد سنة أمام عدم مبالاة حلفاء الأمس الذين تصرفوا ببلاد لا يملكونها . ومنذ أن طردت ألمانيا بعض اليهود من بلادها أخذت القضية الصهيونية تزداد قوة يوماً بعد يوم . إنه لايحق لي أن أتدخل في شؤون سياسة ألمانيا الداخلية التي رأت أنها لاتستطيع أن تثق ثقة تامة بمواطنين ليس لهم ، في الواقع ، أي وطن (مع الاستثناء) ولهم صلات مشبوهة مع الشيوعيين في كل العالم .

وإزاء اكتساح اليهود البلاد الألمانية اكتساحاً متزايداً ، وبعد قرارات المؤتمر الصهيوني الذي عقد في مدينة براغ (سبتمبر ١٩٣٣ م) وتقرر فيه العمل على إسكان عدد كبير من اليهود المهاجرين في فلسطين ، وتكليف لجنتهم التنفيذية بالسعي لدى عصبة الأمم للحصول على مساعدات مالية عالمية ، وبالنظر إلى تحيز إنكلترا واحتفاظها بمراكز قيادية للأقلية الصهيونية ، والاشتراك مع الصهاينة بأرباح البحر الميت مع استبعاد كل العرب من كل الأديان حتى اليهود ، من الإفادة من الأرباح ، كل هذه الأمور أدت إلى هذا الوضع العدائي لليهود .

ولتنفيذ خطة الاستيلاء على فلسطين قامت إنكلترا بدعاية واسعة تقول إن فلسطين بلاد متأخرة ، وإن العرب لم يستطيعوا أن يفيدوا من خيراتها ، وإن اليهود هم الذين جاؤوا بالثروة إلى البلاد . وللرد على هذه الأقوال نقول : إن لدينا إحصاءات اقتصادية يعود تاريخها إلى السنوات الأولية من هذا القرن تدل على ما كان عليه الشعب الفلسطيني من نشاط ، وكانت هناك إمكانات كثيرة للعمل ، ولكن سبب هذا التقاعس يقع على عاتق السلطة العثمانية التي كانت تمنع كل تجديد وتضع العراقيل في وجه كل نشاط وابتكار[1] ، وتضطهد الأذكياء من

(١) على الرغم من إخلاص مؤلف هذا الكتاب للعرب وللمسلمين إجمالاً إلاّ أن الخيال يجمح به أحياناً =

النـــاس ، ومن هنـــا كان سبب هجرة النـــاس إلى الخـــارج . فلمـــا انتهت حرب ١٩١٤ م ، أراد كثير من المهـاجرين الفلسطينيين والسـوريين أيضـاً الرجـوع إلى بلادهم المستقلة لينظموها وينهضوا بها ، ولكنهم حينما رأوا بلادهم وقعت تحت نير صـديق كان لهم أيـام الخطر عـدلـوا عن الرجـوع . إن للعرب من القـابليـة مثـل مالغيرهم لتنمية صناعة وتجارة مزدهرتين وإن ماضيهم أكبر دليل على ذلك .

إن اضطرابات أكتوبر سنة ١٩٣٣ م قد أثبتت أن سياسـة إنكلترا المتـأرجحـة قـد مضى وقتهـا ، وإنهـا لاتستطيع أن تكون صـديقـة للعرب ، أي عرب العراق والسعـوديـة ، وعـدوة لعرب فلسطين في وقت واحـد ، فهنـاك طريـق الهنـد ومستقبل إمبراطوريتهـا وسلامتهـا ، وهنـا حـاجتهـا إلى المـال الموجود في أيـدي اليهود ، وفي إحدى الحفلات قال إنكليزي ذوشأن كلمـة في منتهى الخطورة للعـالم العربي إذ قـال : إن سيـاسـة الإنكليز ترمي إلى توطين مليوني يهـودي وراء العرب فالهند تبدأ من حيفا .

= فيسير وراء دعـايـات مغرضـة أو أقوال ابتـدعهـا الأفـاقـون من أهـل الغرب ليقضـوا على دولـة الخلافة . وقـد أراد المؤلف أن ينصف الفلسطينيين فرأى خير وسيلـة اتهـام العثمـانيين بمـا هم براء منه . إن الدولـة العثمـانيـة لم تقف قـط في وجـه التجـدد ، ولا كانت تضع العراقيل في وجـه كل نشـاط وابتكار ، بل كانت بلاداً في غـايـة التسـامح ، وكانت أبوابها مفتوحـة وصـدور حكامهـا فسيحة لتلقي كل جديد ، ولكن الإمكانات لم تكن متوفرة والدول الغربية قـد أشغلتهـا بحروب متواصلة ، فلم تدع لها مجالاً للعمل الإنشائي إلا بقدر محدود ، وبقدر ما كانت تسمح به إمكانـات ذاك الزمن . إن العثمانيين كانوا دولة مسلمـة ، ولكنهـا لم تكن دولـة متعصبـة ولا عـدوة الترقي ، بل كانت تعمل بقدر ما يسمح لها المجال ، وكان كل المواطنين متسـاوين في الحقوق والواجبـات ، وكانت دولة علمانيـة بكل صـدق وإخلاص ، فـالـدين لله والوطن للجميع ، وإن من يطلع على التاريخ العثماني يجد كثيراً من الأرمن والألبان والبلغـار والأكراد والعرب قـد بلغوا أعلى المراتب في الدولة ، ولم يسأل أحد عن دينه ، فلما جاء دعاة الطورانيـة وهم شبـان أغرار عملوا على خلق القوميات ، فقوضوا تلك الإمبراطورية العظيمة ، وكانوا بلاءً على بلادهم وعلى غيرهم .

هذا وقد بلغ الغليان أعلى درجاتـه من هـذا القول في الأردن وفي سوريـة ، وهو سينتهي ، ولا شك ، بكارثة . ومما يدعو إلى الأسف ، بهـذا الصـدد ، الموقف الذي وقفه وزير خارجية فرنسا بول بونكور إذ سألـه في عصبـة الأمم ، في سبتمبر ١٩٣٣ م ، عضو سويسري من لجنـة الانتـدابـات قـائـلاً : لمـاذا لاترث النسـاء في سورية مثلما يرث الرجال ؟ فأجـابـه الوزير : إن السوريين يعملون بـالتشريع القرآني مثل مصر ، أما لبنـان ، حيث الأكثريـة مسيحيـة (وهـذا قول خـاطئ) فـإنهم أخـذوا يسيرون في أمر الإرث على التشريـع الغربي ، ويرجى أن يطبـق التشريع الغربي في فلسطين في وقت قريب .

لقد خرج جميع الذين سمعوا هـذا التصريح بشعور أن مـاقصـده بول بونكور يرمي إلى أن اليهود سيكونون الأكثرية في فلسطين ، وسيفرضون التشريع الغربي على أهل البلاد[1] .

هذا بالإضافة إلى أن بونكور بتصريحه هذا يظهر جهله التام بهـذا الموضوع ، لأن للمرأة المسلمـة من الحقـوق أكثر بكثير ممـا للمرأة الإفرنسيـة التي تبقى قـاصرة طول حياتها ، ولا تستطيع أن تفعل شيئاً بغير زوجها ، بينما المرأة المسلمة حرة تمام الحرية في تصرفـاتهـا . حقـاً إنهـا لاترث إلاّ نصف مـا يرث أخوهـا ، ولكن هـذه الزيادة ليست لأفضليته عليها ، بل لأنّ له واجبـات لاتكلف بهـا الأخت ، فقـد تغدو البنت صـاحبـة ملايين ، ولكن الشرع لا يجبرهـا على إعـالـة أبيهـا أو ابنهـا أو أخيهـا إذا كانوا محتـاجين ، وأمـا الرجل فلو كان فقيراً فهو مجبر على إعـالـة أمـه وبنته وأخته إذا كن في حاجة ولو بقسط من دخله اليومي ، ولذا فإن إرثـه أكثر من إرث أخته . وعلى كل حال ، فإننـا نؤكـد القول إن اليهود لن يستطيعوا قـط

---

(١) لقـد أخطـأ الوزير وأخطـأ المؤلف لأنـه إذا أصبحت الأكثريـة في فلسطين يهوديـة فلن يكـون تشريع غربي بل تشريع شرقي يهودي .

أن يمتلكوا فلسطين ، لأن العرب من مسلمين ومسيحيين ويهود مواطنين مجمعون على أن يحولوا دون تحقيق المخطط الإنكليزي الصهيوني .

ونعتقد أن الإنكليز أمام شدة المقاومة التي حدثت في أكتوبر الفائت ، وأمام ردات الفعل التي أخذت تظهر من بعيد بدؤوا يدركون الواقع وأخذوا يتحركون .

لقد وردت برقية من القدس مؤرخة في ٩ ديسمبر ١٩٣٣ م ، تتحدث عن وقوع اضطرابات في تل أبيب أثناء عرض نظمه بعض اليهود المتعصبين للاحتجاج على تنظيم الهجرة إلى فلسطين ، وقد هوجم رجال الشرطة فاضطروا إلى استدعاء المدد من يافا ، فحدثت اصطدامات وأصيب بعض رجال الشرطة والمتظاهرين بجراح . ونحن نقول : إن الصهاينة يملكون ، ولا شك ، كل القدرات لكي يجعلوا الناس يكرهونهم ويقتلونهم .

ليس في كل ماأسلفت تحيزاً أو كرهاً للسامية ، ولسنا نحن وحدنا نستنكر الصهيونية بل إن كثيراً من اليهود أنفسهم يستنكرونها ، ويدركون ماتنطوي عليه من أخطار ، وهم مصيبون في نظرتهم هذه ، بدليل الاضطرابات التي نشبت في العالم الإسلامي خارج بلاد الشرق مثل الشمال الإفريقي . والعرب يذكرون الأضرار التي لحقت بهم من اليهود ، فيبدون شعورهم المعادي نحوهم . إن اليهود يلعبون بالنار .

ونختم هذه اللمحة بهذه الملاحظة وهي أن يهود فلسطين (ليس يهود البلاد) إنما هم حثالة اليهود جاؤوا من جميع أنحاء العالم .

سورية : ظهرت سنة ١٩٣٣ م فكرة ترمي إلى إعطاء سورية شيئاً من الحرية ، شريطة أن يفصل عنها محافظتا جبل الدروز وجبل العلويين عن وطنهم الأم ، وأن تكون لهما إدارة خاصة ، فكان من البدهي أن يرفض

السوريون هذا العرض ، وقد أشيع في المقامات العليا أن الوفد السوري الفلسطيني ، في جنيف ، هو الذي حرض على الرفض ، بينما وافق عليه الملك فيصل[1] . وقد سمح لي أن أجيب على هذا القول بما يلي :

من المعروف عن الملك فيصل أنه عنصر معتدل ومعدل أيضاً ، ولكن علمه برأي السوريين بهذا الأمر يجعله لا يجرؤ على قبول هذا العرض الإفرنسي ، لأنه يعلم جيداً أن السوريين لم يستجيبوا له . وزار فرنسا هذا الصيف السيد صبحي بركات وعرضت عليه هذه الفكرة فرفضها ، وجعل وحدة البلاد شرطاً أساسياً لقبول العرض الإفرنسي ، هذا مع العلم أنه انتخب لرئاسة المجلس بدعم من الإفرنسيين وهو صديق لفرنسا[2] ، ومع ذلك فإنه لم يرض بالبرنامج الإفرنسي .

وفي الحقيقة ، هو أن نظام الختل والخداع الشائن والسائد في فرنسا حيث يستغل الوزراء والبرلمانيون نفوذهم لتوظيف أبنائهم أو أبناء إخوانهم أو أبناء عمومتهم أو أصدقائهم أو عملائهم في وظائف الدولة إذا كان يوجد شاغر لهم ، أو يخلقون لهم وظائف إذا لم يكن شاغر ، ثم دعمهم لأعمال ذات مرابح مادية ، كل أولئك يدل على النظام الفاسد في البلاد ، فكيف يرجى من هؤلاء القادة أن ينظروا إلى المصلحة مجردة ، أو أن يطلب منهم أن يسلكوا سبل العدالة ؟

---

(١) إن حشر اسم الملك فيصل بهذا الأمر نوع من الدس من قبل الإفرنسيين ، إذ لم تكن له أية علاقة بسورية آنذاك ، حتى يستشار بشأنها أو حتى يقبل أو يرفض أمراً يتعلق بسورية ، ولكن مركزه في العالم العربي يعطي وزنه لكل ادعاء .

(٢) صبحي بركات لم يكن صديق الإفرنسيين بل هو أول من حارب الإفرنسيين بالسلاح ، وكانت له مواقف وطنية خلال فترة وجوده رئيساً لدولة الاتحاد ، أو وهو رئيس للمجلس النيابي لم يقفها أحد غيره ، وإن البيان الذي أصدره ، سنة ١٩٣٦ م ، أثناء الإضراب الخمسيني ، مخاطباً به المفوض السامي الإفرنسي هو آية في صدق الوطنية وفي الجرأة ، وهو مالم يجرؤ أحد من مدعي الوطنية أن يفعله .

وللتأثير على الرأي العام العالمي ، من جهة ، ولتبرير الاستمرار في استيلائنا المشين على سورية من جهة ثانية ، أعيدت القضية الآشورية إلى السطح من جديد ، واتخذت حجة لعدم إنصاف السوريين ، ولما لم تنجح الحكومة الإفرنسية في مساعيها ، رأت أن تأخذ موافقة رئيس المجلس النيابي على مشروعها ، وأضافت إليه مادة تقول : يرجع البحث بأمر قضية جبل الدروز والعلويين إلى دمشق ولكنها لم تنجح . وعلى الرغم من كل أنواع الضغط التي مارستها فرنسا ، في جميع المجالات ، ظلت المقاومة شديدة إلى حد أنها جعلت المفوض السامي يعلق أعمال المجلس النيابي فيخرق بذلك دستور البلاد ، مما أدى في ٣ ديسمبر ١٩٣٣ م إلى احتجاج شديد اللهجة من قبل الوفد السوري الفلسطيني . وهكذا فقد بدأ المفوض السامي الجديد السيد ده مارتيل ، عهده بأعمال قلب بها الأمور رأساً على عقب .

إن مافعلته فرنسا لا يليق بأمة عظيمة أن تعمله ، وهو عمل نفر منها كل المعجبين بها وكل أصدقائها المخلصين ، فإذا حلت بنا كارثة فإننا لن نجد ، بعد الآن ، أحداً يقف إلى جانبنا يرثي لحالنا أو يأخذ بيدنا .

إن من ينظر إلى سورية بإنعام نظر ، يجدها قد أخذت تفقد صبرها رويداً رويداً ، وتنتظر الساعة المؤاتية للعمل . إن سورية تهتز وتضطرب لكل أمر يهم العرب والمسلمين ، وترغب ، على الرغم من العقبات ، أن تشارك في الحياة العامة مع إخوانها في الدين في كل مكان من العالم .

إننا نعيش بحزن عميق وألم شديد لهذه الفترة التي نمر بها من التغير العاطفي الذي يبدو نحونا من قبل أناس كانوا أحباباً لنا ، يوم كان شعارنا الشرف والحرية . فماذا جنينا من نقضنا المعاهدة التي وقعناها ؟

هل إننـا حفظنـا ، على الأقل ، الأمـانـة التي اؤتمنـا عليهـا ؟ كـلا ، إننـا لم نفعل ، بل لقد كنا منتدبين غير أمناء على الأمانة بتضحيتنا بمناطق ليس لنـا من حق أن نفصلها عن أمها . علينا أن نعترف بذلك صراحة ، لابل وأن نعلنه بصوت عال . فمنذ ثلاثين سنة وأنا أتابع أحداث هـذه البلاد ، وأنـا متطلع على تطلعـات قادة هذه البلاد ، وقد كنا على قيد أنملتين من النجاح ، وإذا بالأمور تقلب رأسـاً على عقب ، ولذا فإننا نشعر بألم شديد لهذه النتيجة التي وصلنا إليها .

من الأسباب التي تتخذ ذريعة لعدم تحرير سوريـة قولهم : إنـه لاتكاد آخر باخرة لنا تترك الشـاطئ السوري ، تحمل جنودنـا العـائـدين إلى أوطـانهم ، حتى تشتعل الحرائق فـوق كل جبـال لبنـان فتلتهم الأخضر واليـابس[1] ، وهنـاك من يقول إن سورية لم تكن موحدة قط ، وأن كل شيء فيها يدل على انقسامها . وأن الـذين تكلموا عن مـذابح المسيحيين في سوريـة هم ولا شـك لا يعرفـون شيئـاً من تـاريـخ هـذه البـلاد ، وقـد تحـدثت عن هـذا الأمر مراراً في كتـابي : (الثـورة العربية) .

أما الأمر الثاني فهو يدعو إلى الضحك ، ونحن نسأل القائلين بـأن سوريـة لم تكن موحدة : أين هو التقسيم الذي كان زمن العثمـانيين ؟ إن كل سكان سوريـة ولبنان بما فيهم المارونيون هم عرب ، ويتكلمون اللغة العربية . إننـا نعلم أن بعض الكتاب سعوا لكي يثبتوا وجود أصول مختلفـة في البلاد انـدمجت في وحـدة ، ونحن

(١) إن الـذين يتمسكـون بحركـة الستين أي الاضطرابـات التي حـدثت سنـة ١٨٦٠ م بين المسلمين والمسيحيين ، ليدللوا على ما يتعرض لـه المسيحيون من عـداء من قبل المسلمين ، إنما هم يسـاقون بدعاية أجنبية مغرضة ، والحقيقة أن سبب هذه الحركة المؤلمة هم المسيحيون الأجانب ، ومن شاء أن يطلع على حقيقة هذه الحركة فليرجع إلى كتاب : (البلاغ المبين في أصل حركة سنة الستين وجرائم المبشرين والمستعمرين) ، وهو بقلم الأديب المسيحي جورجي حداد ، صـاحب ومـدير جريـدة القلم الحـديـدي ، التي كانت تصـدر في سـان بـاولو ـ البرازيـل ، وطبـع الكتـاب سنـة ١٩٣١ م ، وفيه تفصيل كل شيء .

لا ننكر هذا ، بل نقول إنه كان مثله في فرنسا أيضاً ولكن من يستطيع ، اليوم ، أن يدعي أن الباسك ليست إفرنسية ؟

أما الذي لاشك فيه هو أنه كان يوجد في البلاد زمن العثمانيين فريقان من المسيحيين يلتفون حول مطارنتهم أو بطاركتهم ، ويتمتع كل من الفريقين بامتيازات خاصة به ، وبدهي أن تزول هذه الامتيازات في دولة موحدة .

هذا ، وإن خوف بعض الأشخاص من أن تتحد سورية والأردن والعراق في دولة كونفيدرالية واحدة يدفع هؤلاء إلى عدم إعطاء السوريين حريتهم ، فما أقل بصيرة هؤلاء الناس الذين لا يرون الخطر الذي يخبئه هذا الموقف المعادي من أناس كنا إلى الأمس القريب سعداء بأن نراهم وقوفاً إلى جانبنا أثناء الحرب ، والذين عقدنا معهم معاهدة ولانقوم بتنفيذها . إننا نستنكر هذا الموقف من الصدود الذي نقفه من أناس تعاهدنا معهم ، لأن هذا الموقف يحرض أقواماً آخرين على أن يعاملونا بمثل مانعامل به غيرنا .

هناك جريدة كتبت في ٤ مايو عام ١٩٣٢ م مقالاً تحبذ كل ماستنكرته أنا في عشر مؤلفات ، وتدعو فرنسا أن تستولي استيلاءً تاماً ونهائياً على سورية ، وأن تنبذ الانتداب وتفرض إرادتها . إن هذا القول بعيد جد البعد عن الصواب وسيجلب لنا ، لوتمّ ، مزعجات نحن في غنى عنها في الوقت الحاضر ، لما سيحدثه من ردة فعل في العالم الإسلامي كله .

أما الادعاء بأن السوريين لا يعرفون أن يديروا أنفسهم بأنفسهم فهي دعوى باطلة ، فقد كان للسوريين سنة ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ م ، جيشهم وكان لهم موظفوهم الإداريون ، وكان كل شيء سائراً على أحسن نظام ، فهل حدثت مذابح ؟ كلا . ثم أليس اشتراك كل الكنائس المسيحية بمأتم الملك فيصل دليل جديد على أن كل أهل البلاد عرب ، وتفكيرهم عربي ، ويدينون بالتاريخ العربي المجيد ؟ إن

العرب أمة واحدة ، ولكننا نحن الذين مازلنا نعمل منذ ١٣ سنة على تفريقهم لكي نستطيع أن نحكمهم .

إن السوريين يسرهم أن يكونوا حلفاء لنا ، وهم يوافقون على أن نحتفظ بمركز بحري في الأسكندرونة أو في طرابلس ، فماذا نريد أكثر من أن تكون مصالحنا مصانة ؟ إن الموظفين المدنيين والعسكريين لا يسرهم ماأقول . وهذا أمر مؤسف ، ولكن العدالة والحق يجب أن يراعيا قبل كل شيء ، وإذا كان هناك من الكتاب من يدعو إلى غير ذلك فالسبب هو جهلهم بحقيقة التاريخ ، ولا نتهمهم بأنهم يرغبون أن يضربوا بتقاليدنا النبيلة عرض الحائط ، كما أنهم بعملهم هذا يزيدون في عداد أعدائنا .

وصايا المستعمرين العشر

بعد أن كتب المؤلف ما كتب عن سورية ذكر شذرات عن بعض البلاد الإسلامية مثل السعودية والقفقاس وتركستان وإيران وأفغانستان وتركستان الصينية وأندونيسيا وأوربا وبولونيا ورومانيا وبلغاريا ويوغوسلافيا وألبانيا وإسبانيا (ويقصد بالبلاد الإسلامية البلاد التي يوجد فيها مسلمون) وكل ماذكره عن هذه البلاد كان مقتضباً لا يتجاوز السطور عن كل بلد ، ولا يفيد واقعاً ، لأن الأمور تغيرت وتبدلت منذ أكثر من نصف قرن وإلى اليوم ، ولذلك فقد صرفت النظر عنه ، كما أنه ذكر أشياء عن الشمال الإفريقي وعن سيئات الاستعمار وسوء معاملة المستعمرين لأهل البلاد مما نعرفه ، وقد مضى وقته وقضي على الاستعمار ، وأصبحت هذه البلاد مستقلة حرة ولم يعد من الاستعمار إلا سيئاته في الأذهان . ولكن الذي أعجبني في هذا الفصل وصفه للعقلية الاستعمارية بكلمات أسماها (الوصايا العشر) ، وهي تعبير صادق عما كان عليه الاستعمار ، فرأيت ذكرها للتاريخ لأنها تدل على أشياء كثيرة وهي :

١ ـ انس تاريخك واحفظ تاريخنا ، ولكنك لن تدخل قط في أسرتنا .

٢ ـ كرر شعارنا : حرية ، مساواة ، أخوة ، عن ظهر قلب في المدرسة ، ولكن إياك أن تطالب بها في الحياة العملية .

٣ ـ في المجالس المنتخبة تظل الأدنى ، تعمل برأي الإفرنسيين ولا تدافع عن منافعك .

٤ ـ تعمل في أرضي من الصباح إلى المساء ، وتأخذ أجراً يكاد يسد الرمق وعلى هواي وتخضع لي بلااعتراض أوملل .

٥ ـ تنسى كرامتك الإنسانية ، تقبل اليد التي تضربك وتحمد فضلها .

٦ ـ لاتقطع البحر قط[1] زمن السلم ولاتطالب بأي حق ، وإلا قيل عنك أنك مصاب بالطاعون ، مشاغب ، عدو اليهود ، وطني[2] ، شيوعي ، وعليك أن تنتظر عقابك من شوطان (كان آنذاك رئيس وزراء فرنسا) .

٧ ـ تخدم العلم سنتين بدل سنة واحدة ، وتكون الأول الذي يذهب إلى المذبحة (يعني الحرب) ، وتخضع لمعاملة خاصة ، وإياك أن تطلب تحسين حالتك .

٨ ـ إذا جعت أو عريت أو أصبحت بلا مأوى ولا أسرة فمد يدك واسأل المارة ، ولكن إياك أن تشتكي أو تئن ، وعليك أن تصيح : لتحيا المدنية .

٩ ـ عليك أن تطيع شيوخ الطرق وأئمة المساجد والمفتين وكل هؤلاء المخلصين من أرباب الشعائر الدينية ، وعليك أن تشتري الحجب التي يكتبونها ، وتقبل أطراف جببهم ، وتنحني لتعاليهم وتطلب بركتهم ، وإلا أصابتك لعنتهم (قال هذا على اعتبار أن هؤلاء الناس كانوا زمن الاستعمار آلاته وأعوانه) .

١٠ ـ تتغنى بطيبة السيد ميرانت (ضابط أمور المواطنين) وأتباعه ، وتمدح أصدقاء فرنسا ، وتقيم لهم التماثيل ، فإذا عصيت أو أظهرت استقلالاً بالرأي فمصيرك السجن .

---

(١) أي لاتذهب إلى فرنسا زمن السلم ، لأن الإفرنسيين لا يكونون بحاجة إليه آنذاك بل يحتاجون إليه زمن الحرب ، وذهابه إلى فرنسا زمن السلم للعمل ، وهذا مالم يكن يريده الإفرنسيون .

(٢) ـ وطني بمعنى أنه ضد الاستعمار ، وهذا ذنب كبير أن يحب الإنسان وطنه .

الخاتمة

إن العالم الإسلامي ، كما رأينا في الفصول السابقة ، هو اليوم في نهضة كاملة وفي غليان شديد ، وهذا أمر طبيعي ، بعد أن قاسى المسلمون ماقاسوا ومـا زالوا يقاسون من محن ، وإن كلمة (المكتوب)[1] أو الإغراق في القدرية قد زالت من رؤوس الشبان وأكثر المسنين أيضاً ، وأنهم أصبحوا يدركون أن القدر هو ما يفعله المرء ، وقد أخذ المسلمون يعتمدون على إرادتهم وهم على حق ، بأن يطالبوا المستبدين بهم بوضع جديد غير وضعهم الحالي .

أما فيما يتعلق بالمسلمين الذين مازالوا تحت سيطرة مختلف الأمم الأوربية ، فإني أرى أن أذكر فيما يلي الرأي الحصيف الذي أدلى به الأمير ليوبولد[2] ولي العهد البلجيكي أمام مجلس الشيوخ في ٢٥ يوليو ١٩٣٣ م ، وإليكم خلاصته :

خلال رحلة قام بها الأمير ليوبولد إلى الكونغو البلجيكية[3] رأى بأن أهل البلاد هم أساس ثروة كل المستعمرات ، وأن إصلاح حالتهم النفسية والمادية هو الواجب الأول الذي يجب مراعاته للمصلحة العامة ، وأنه من الخطأ اعتبار أهل البلاد أداة إنتاج فقط ، ومن حسن الحظ أن تنبه البلجيكيون إلى ذلك ، وأن يعملوا على إصلاح الأغلاط السابقة التي ارتكبت .

---

(١) يستعمل أهل الشمال الإفريقي كلهم كلمة (مكتوب) وهم يعنون (مقدر) أي أن الأمر مكتوب في لوح الأزل ولا يمكن تغييره ويجب الاستسلام له .

(٢) هو ليوبولد الثالث الذي أصبح ملك بلجيكا من سنة ١٩٣٤ م إلى ١٩٥١ م ، وقد تنازل عن العرش لابنه الملك الحالي بودوان ، لأنه اضطر سنة ١٩٤٠ م أن يستسلم للألمان يوم اكتسحوا بلاده .

(٣) كانت مستعمرة بلجيكية استقلت سنة ١٩٦٠ م ، وسميت زائير سنة ١٩٧١ م ، وقد حدثت فيها حوادث كثيرة بعد استقلالها ، وكادت تصبح شيوعية ثم أصبحت ديمقراطية بحتة .

إن الإجبار على العمل إنما هو خطيئة اجتماعية لأن ابن البلاد حينما يرى منفعته في العمل لا يحتاج إلى من يدفعه إليه بل يعمله بطوع إرادته .

لا شك أنه يجب الإبقاء على الاستثمار القائم حالاً ، ولكن يجب أن يسمح لابن البلاد أن يبلغ مرحلة الرخاء ، ويجب على الحكومة ألا تعطي حق استثمار الأرض ، لمدة محدودة على الأقل ، لأية شركة أو جماعة أوربية .

إن هذا درس قيم يعطيه الأمير ليوبولد ، وهو أمير شعب صغير ولكنه ذكي ونشط ، ولكن هذا الأمير لم يلق كلامه وهو جالس في قصره ، ولم يقنع بالتقارير التي تقدم إليه من قبل الموظفين المشرفين على الأمور في المستعمرة ، بل أراد أن يدرس الوضع بنفسه ليرى كل شيء بأم عينيه ، فذهب إلى الكونغو وقضى الوقت اللازم فيها ، وحصل على ما حصل عليه من آراء قيمة ، على الضد من برلمانيينا وصحافيينا الذين يكتفون بالسماع .

فهل تفيد الدول الكبيرة من هذا الدرس ؟ إنه ليس من واجبنا أن نجيب على هذا السؤال بل عليهم هم أن يجيبوا عليه ، أم هل يتركون الحوادث تسبقهم ؟ هذا سر الحكومات .

على كل حال إن الوضع الحالي لا يمكن أن يستمر إلى الأبد ، وإن الإسلام لا يستطيع أن ينتظر بل يريد حلاً عاجلاً . إن العرب والمسلمين لا يريدون إلا أن يكونوا محترمين في أشخاصهم وفي ممتلكاتهم وفي دستورهم وفي عقيدتهم ، في كل الشمال الإفريقي وفي العالم كله ، ويريدون الحرية مع معاهدة صداقة في الشرق ، فإذا تأخرنا بإعطائهم هذا القليل فلا يكون أمامهم إلا أن يتحدوا ليؤلفوا قوة لا تقاوم في الشرق وفي إفريقيا .

إن هذا البرنامج في دور المخاض ولا شيء يستطيع تأخير ولادته . ومن ناحية أخرى ، فإني أرى أن العمل جار ، في آسيا ، لتأسيس دولة كونفيدرالية

إسلامية تضم دولاً قوية وأقليات ذات شأن تبدأ من شمال الهند إلى نهر الفولغا ومن حدود سن كيانغ[1] الشرقية إلى العراق ، وهنا تتصل بالكونفيدرالية العربية .

وخلاصة الكلام هو أن الذي ينقص المسلمين هو النظرة الشاملة ، أي : البرنامج والتوجيه ومعرفتهم بقوتهم وبوسائل العمل . وقد أشرت إلى ذلك في كتابي هذا اعتماداً على قرارات المؤتمر الإسلامي الأخير .

إن العمل عظيم ولا شك ، ولكن يمكن تحقيقه فوراً وقد أخذ يرى النور .

إن أهل البلاد غير المسلمين ، والذين هم جزء لا يتجزأ من البلاد الإسلامية ، يتألمون كما يتألم المسلمون ، وإن الإصلاحات التي ستدخل على النظام السياسي والشخصي في هذه المناطق لن تصيبهم بأي ضرر .

إن ماذكرته ليس تمنيات ولا خيالات وشطحات قلم ، بل هو منطق الأشياء ونتيجة أخطاء سنين عديدة من منافسات وأنانيات الدول الكبيرة ، وإذا كانت الدول الكبيرة قد ألغت الرق فإنها قد عادت إلى ممارسته بأشكال أخرى أكثر رقةً ولطفاً ولكنه أشد صرامة وقسوة . ولكن لابد للمظلوم من أن يرفع رأسه . لقد دقت الساعة ، فإذا كانت الحكومات لاتريد أن تغير شيئاً من سيرتها ، فإننا نناشد الشعور الإنساني والعقل . إننا نود أن تسلك بلادنا طريقاً جديدة ، وأن تسمع الصراخ المنبعث من كل صوب ، وأن تنبذ آراء المستعمرين الخداعة ، من أي طبقة من الناس كانوا ، أولئك الذين يظنون أنه يحق لهم أن يفعلوا كل ما يريدون فيسيئون إلى الوطن . علينا أن نستعيد وجهنا الحقيقي البريء ، وحينذاك تصبح فرنسا قوية ، محترمة ، محبوبة ومباركة ، وبفضل هذا الشعور بالمحبة تحتل مكانتها في العالم على رأس الحضارة والعدالة .

---

(١) منطقة مستقلة استقلالاً ذاتياً في تركستان الصينية في وسط آسيا . عاصمتها أورومتسي ، وهي الطريق القديم بين غرب آسيا وأقصى الشرق .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة المترجم	٥
١ ـ العرب والإسلام أمام الحروب الصليبية وفلسطين والصهيونية	١١
مقدمة المؤلف	١٣
الفصل الأول : الحروب الصليبية الجديدة	١٥
الفصل الثاني : فلسطين والصهيونية	٢١
الفصل الثالث : تونس والمغرب	٤١
الفصل الرابع : دفاع العرب والمسلمين	٥٧
الفصل الخامس : دوافع الصليبيين	٦٦
الخاتمة	٧٢
٢ ـ الإسلام يدافع عن نفسه	٧٧
تقديم المترجم	٧٩
تقديم المؤلف	٨٣
مقدمة المؤلف	٨٤
الفصل الأول : اعتبارات عامة : الإسلام ـ قوته ـ دفاعه	٨٦
الفصل الثاني : البلاد الإسلامية	١١١
وصايا المستعمرين العشر	١٢٨
الخاتمة	١٣٠

تم طبع هذا الكتاب بتاريخ ١٥/٩/١٩٩٠م
عدد النسخ (١٥٠٠)

آثار المترجم المطبوعة

١ـ الجزائر العربية أرض الكفاح المجيد	تاريخ
٢ـ تونس العربية	تاريخ
٣ـ المغرب العربي	تاريخ
٤ـ تاريخ شبه الجزيرة الهندية الباكستانية	تاريخ
٥ـ باكستان ماضيها وحاضرها	تاريخ
٦ـ مأساة كشمير المسلمة	تاريخ
٧ـ منوسمرتي أو التشريع الهندوكي	مترجم ومقارن بكتب الديانات الثلاث
٨ـ مسلم الغد	برنامج لنهضة إسلامية
٩ـ الإسلام أو الشيوعية	خطر الشيوعية على الإسلام
١٠ـ المسلمون في الاتحاد السوفييتي	تاريخ ـ مترجم
١١ـ المسلمون أمام التحدي العالمي	سوء حالة المسلمين في أوربا الشرقية
١٢ـ إفريقيا الحرة أرض الأمل والرخاء	موسوعة صغيرة لكل البلاد الإفريقية
١٣ـ تاريخ الدولة العلية العثمانية	تحقيق وشرح
١٤ـ انهيار عروش وتدحرج رؤوس	لمحة عن الدول التي زالت في هذا القرن
١٥ـ أفغانستان	تاريخ
١٦ـ عائد من الجحيم	واقع العالم الشيوعي في أوربا الشرقية
١٧ـ خلق لا تطور	ترديد نظرية دارون ـ مترجم
١٨ـ عمر الخيام	لمحة عن حياته وشعره
١٩ـ أسرار الخلقة وإبداعها (علم الفراسة)	

٢٠- علم الكف

٢١- الدليل إلى معرفة أحكام التوراة والأناجيل

٢٢- الصوم عند الأمم

٢٣- مفتاح العربية — لتعليم اللغتين العربية والأردية

٢٤- آراء في محاضرات — محاضرات ألقيت في جامعات باكستان

٢٥- محمد علي جناح — حياته وسياسته

٢٦- علمانية الهند — سوء حالة المسلمين في الهند/ مترجم

٢٧- بروتوكولات حكماء صهيون — مترجم

٢٨- أصغر خمس دول في العالم

٢٩- حياة محمد ﷺ — لمحة موجزة للمبتدئين

إن هذا الكتاب حجة دامغة على سوء نية الغرب بالإسلام والمسلمين وتربصه بها الدوائر ، وما كان يصح أن يقال بهذا الشأن فيما مضى من الزمان فإنه مازال اليوم صحيحاً ولم يبدّل الغرب شيئاً من نظرته نحو الإسلام والمسلمين ، لا بل فإن عداوة الغرب للإسلام والمسلمين قد ازدادت عما كانت عليه من قبل وذلك لأن اليقظة الإسلامية جعلت الغرب أشد يقظة مما كان عليه من قبل وأخذ يعمل على تكثيف جهوده والالتفاف حول كل حركة إسلامية للقضاء عليها قبل أن يستفحل أمرها وتعسر عليه مقاومتها .

وإذا كان ما في هذا الكتاب من حجج دامغة تؤيد دعواه فإن قيمة هذه الحجج تزداد أهمية لكونها جاءت بيد مسيحي مؤمن بدينه أصدق إيمان وإفرنسي متعصب لجنسيته أخلص تعصب ولعله بهاتين الصفتين استطاع أن يكتشف الخطأ الذي يرتكبه بنو قومه إزاء المسلمين ، فمطالعة هذا الكتاب واجبة على كل مسلم وعربي لما انطوى عليه من حقائق ومن بعد نظر وهو دليل على شعور حيّ وفكر نيّر ولسان صدق وكفى بذلك شفيعاً .